البرتو مورافيا

# خيانة زوجية

رواية

*

ترجمة

شارل الخوري

دار [illegible] - الترجمة كاملة -

## كتب للمترجم

| | |
|---|---|
| لمن يقرع الجرس | رواية مترجمة |
| جنين للقتل | رواية موضوعة تحت الطبع |

# The Wayward Wife

*Alberto Moravia*



طبعة أولى آب ١٩٦٦

# ١

في احدى مدن اواسط ايطاليا ، كانت تعيش منذ سنوات ، ارملة مسنة مع ابنتها . وكانت الام تدعى « كيانستا فوريزي » والابنة «جيما». وكانت هذه البلدة الباهتة ، بمنازلها ، وبيروجها العدة ، تقوم فوق هضبة مرتفعة ، يعبر فيها شارع ، من طرفها الاول حتى طرفها الثاني ، وقد عرف هذا الشارع باسم «كورسو» حيث تقوم فيه الكاتدرائية ، وأجمل مباني البلدة . ومن شارع كورسو هذا ، وفي كلا جانبيه ، يمكنك أن تهبط عبر أزقة ضيقة ، أو في سلالم مائلة ، وواقفة الانحدار ، الى طريق تمتد على طول الحواجز القائمة حول سفح الهضبة .

وفي أحد هذه الأزقة ، الذي يعود إسمه إلى معنى العذاب ـ ومن الممكن ان يكون هذا بسبب تمثال قديم، بني في جدار، عند احدى الزوايا، ويمثل المسيح المصلوب في جبل الجلجلة ـ في هذا الزقاق ، كانت عائلة فوريزي ـ المكونة من المرأتين ـ تشغل الغرفة العلوية من بيت قديم متصدع. وبما أنّ هذه المدينة ، كانت عاصمة الاقليم ، فقد كانت تشهد تدفق الحياة فيها ، بمجيء عدد كبير من الكتبة ، ورجـــال الاختصاص ، وضباط الحامية. ومثلما كان يفعل معظم اهالي تلك المدينة، مضت عائلة فوريزي،

التي كانت تعاني فقراً مدقعاً ، تحاول الاستفـــدة من هؤلاء الأغراب . فتركت غرفتين او ثلاثاً من المنزل برسم الايجار ، وهي الغرف المفضلة من البيت ، لم تكن لتطل على الزقاق ، وانما كانت تطل على حديقة المطبخ المشمسة ، والمهجورة ، والتي تمتد خلف المنزل .

كانت الام تناهز الخمسين من العمر تقريباً ، وكانت قصيرة القـامة ، بدينة ، رثة في ثيابها ، ومتواضعة في أخلاقها ، غير أنك من خلال منظر يديها البيضاوين ، الصغيرتين والناعمتين ، وشعرها الذي ما برح أسود ، وقد سُرح بحرص ، بطريقة لا تخلو من بعض الغنج القديم ، ووجهـا المتلىء ، الذي ما يزال يحتفظ ببعض ظرفه ، وعينيها ، بشكل خاص ، الرقيقتين ، والضاربتين الى الزرقة البـاهتة ، بحيث تبدو فيهما احياناً ، نظرة غريبة يمتزج فيها شيء من الضحك والوقاحة ، من خلال منظرها هذا ، يخيل اليك بأن هذه المرأة ، قد كانت منذ عشرين سنة خلت ، تقريباً ، على قسط وافر من الجمال ، وفي هيئة وخُلـق مختلفين عنهما الآن .

كانت ترتدي ثيابها باسلوب لا شكل له ، على طريقة النساء المسنات ، وربات المنازل ، في تلك المقاطعة . وكانت ثيابها هذه تتالف من « تنانير » سوداءَ او رمادية ، يبلغ طولها اسفل قدميها ، ومن قمصان ذات ياقات عالية ، وشالات تلفها حول صدرها . ولم تكن قط لتستعمل المساحيق على وجنتيها ، ومع ذلك ، فقد كان واضحاً انها ستبدو أفضل ، لو تصنعت قليلاً ، وحسنت من ملابسها .

كانت أنيسة المعشر ، وعندما لم تكن مشغولة في بيتها ، باعمال المطبخ ،

أو الابرة ، كانت تلف عنقهــا بفروٍ صغير ، أجرب ، وتعتمر قبعة صغيرة ، سوداء ، وتمضي الى الكنيسة . فتربض هناك في زاوية مظلمة ، خلف أحد الأعمدة، رافعة عينيها الى السماء، بدون حرارة، ولكن بدون ذهول كذلك . ثم تبدأ تحرك شفتيها بصلوات معقدة ، حتى ما لا نهاية .

لم تكن تبدو كربة بيت كاملة ، ولا كإمرأة متعصبة لدينها تماماً ، وانما كانت تبدو وكأنها قد وقفت نفسها لتحيا نوعاً من الحيـاة الغريبة عنها . وكان وميض ضحكتها الوقح ، ما يزال يظهر في عينيها، من وقت الى آخر. وبالنتيجة كان ثمة نوع من الرياء الخبيث، يغلف مجمل شخصيتها.

وعلاوة على ذلك ، لو لم تكن لدى الام هيئة الدهـاء هذه ، والمظهر المصنوع ، لكان ما يزال عند الابنة دليل كافٍ للمقـــارنة بين حياتها الحاضرة ، الوضيعة ، وبين ماضٍ مجهول ، كان يجب ان يكون مختلفاً . لم تكن جيا جميلة ، وإنما ، في الحقيقة ، كانت اقرب الى البشاعة . لكن ملامح وجهها كانت سامية وواضحة بحيث تظهر في هيئة أصيلة . كانت تبدو كذلك وكأنها تشكل نوعاً من الجمال المتغطرس .

كانت جيا طويلة القامة ، نحيلة ، وكانت فخذاها طويلتين ، لكنهما جميلتان ، وصدرها كان مسطحاً ، لكنه عريض ككتفيها . وكان وجهها نحيلاً باهتاً ، الا ان وجنتيها كانتا دائمة الحمرة الخفيفة . اما عيناها فكانتا واسعتين وبطيئتي الحركة ، وقد برزت فوقها جفون حجبت البؤبؤين، وأضفت على نظرتها نوعاً من عزة النفس المزدرية والكئيبة . وكانت ذات أنفٍ أقنى ، وفم كبير أشم، وشعر اجعد. وقد كانت هيئتها لطيفة،

ولكن لا تدل الى الصحة ، واحياناً لم تكن هذه الهيئة لتبدو واضحة ، واحياناً اخرى كانت تبدو وقد ألمت بها بعض العيوب. وكانت الشعيرات الجميلة الناعمة التي تضفي ظلها فوق ذراعيهـــا ، وعلى مؤخرة عنقها ، توحي بأن جسدها أزغبُ ، ومتاجج بالحرارة بالرغم من ضعفه غير الكيـس .

وقد كان فيها شبه من أمها ، ما عدا انفها الأقنى ، الذي كان في أمها السنيورا كيانستا أقنى زيادة عن اللزوم . لم تكن تشبه اباها في شيء ، حيث نستطيع ان نحكم على ذلك ، من خلال صوره المعلقة في الجدران . كان يبدو قصيراً ، مربوع القامة ، وحسن الخلقة . وكان رجل اعمالٍ ، الا انه فشل في حياته العملية ، وتوفي بعد ذلك مباشرة ، تاركاً زوجته في فقر مدقع ، مع ابنة ما تزال حديثة السن .

ومهما يكن من امر، فان جيا، بالرغم من مظهرها الشاحب وجسدها الهزيل ، والظريف ، لم يكن يبدو فيها مـا يدل الى ملامح ريفية ، أو أنيسة ، وانما على العكس، فاذا ما نظرتَ اليها لن تستطيع الا ان تتذكر نساء المجتمع الشاحبات والقاطنات في المدينة بحكم المهنة ، حيث يصرفن يومهن ، وهن يضطجعن فوق « الصوفة » بتكاسل ، ولا يخرجن الا عند المساء ، ويرتدين ثوب السهرة دائماً . فهن مخلوقات الليـل ، اللواتي يزلن بسرعة ، دون ان يملكن الصحة .

ولكن مظهر جيا هذا ، كان بلا شك ، اكثر جميع المظاهر خداعاً ، لأنها لم تكن ترتدي سوى الملابس البسيطة السوداء ، التي كانت تحاول ان

تضغط نفسها بها عند الخصر ، كيما توازن بين حجم جسدها وضعف صدرها . اما بالنسبة لحياتها ، فقد كانت مملة للغاية وعفيفة ، كتلك الحياة التي من الممكن ان يحياها المرء حتى في تلك المدينة الريفية .

وبالرغم من الفقر الذي كانت تعيش فيه هاتان المرأتان ومن حقيقة تخصيصها غرفاً للايجار، فقد كانتا تستمتعان ببعض الاعتبار في البلدة ، وهو اعتبار غير متين ولا يمكن تأويله. وكانتا كذلك معروفتين بالنسبة لكل شخص. وبوجه العموم، كان معروفاً عنهما، لحظوتهما، بأنهما لم تكونا لجوجتين، وقد كانتا «تعرفان مركزهما». والأسباب التي من اجلها قام هذا الاحترام ، الذي حُرم منه أناس ، هم اكثر غنى وتأثيراً منهما ، كانت عديدة ، ولم تكن جميعها واضحة . وربما كان من بينها انهما كانتا امرأتين وضيعتين ، او انه كانت لهما صفة ما خاصة ، وميزة تجعلانهما تبدوان وكأنهما جاءتا الى هذا العالم ، حيث لم تتبوأا فيه بالواقع مركزاً اجتماعياً اكبر من هذا الذي تتبوآنه الآن . وقد خلق الحسدة - اولئك الحسدة الذين لا يخلون حتى عند الناس الذين هم في ادنى مرتبة تبعث على الحسد - هالة من المحاولات الاثباتية المختلفة، التي ترتكز جميعها الى حقيقة واحدة، وهي العلاقات القائمة بين الابنة وبين عائلة غنية ونبيلة، تعيش في الجوار.

كانت جيما تذهب في كل فصل من الصيف ، لتمضية شهرين في عقار لا يبعد كثيراً ، حيث كانت تملك هـذه العائلة احدى « الفلل » . وكانت العائلة تتألف من أب ، وابن ، وابنتين تنهازان جيما سناً تقريباً. وعندما كانت جيما طفلة ، قامت امها باصطحابها الى ذلك المكان مرتين ،

لتمضية فترة قصيرة ، لا تزيد على بضعة ايام ، ولكن هذا كان منذ وقت طويل ، وقد عفت عليه الذاكرة ، ولم تعد هي نفسهـــا اكيدة منه ، وبالأحرى لأن أمها لم تات على ذكر هاتين الزيارتين قط ، ولم تظهر على نفسها انها تعرف تلك « الفيلة » . اما فيما بعد فقد اخذ اصحاب « الفيلة » يرسلون مربيتهم للمجيء بها ، وعندما كبرت جيما اصبحت هي تذهب اليهم بمفردها وتقضي عندهم شهرين .

وكانت تربطها بالفتاتين صداقة ثانوية غير متساوية ، ومع الوقت وفيما كن ثلاثتهن ينمين معاً ، كانت صداقتهن هذه تتحول اكثر فاكثر الى صداقة تحمل صفة الدونية بالنسبة الى جيما . وكانت الفتاتان الاخريان تقدمان لها بعض الهدايا مما تكونان قد نبذتا من ثياب واشياء اخرى ، وتعهدان اليها بجميع الاعمـــال الدقيقة والصعبة ، التي لا يمكن ان تُترك لخادمة.

ولم تكن صداقة جيما بالنسبة اليها، في الواقع باكثر مما تكون الصداقة بين سيدة وبين مديرة شؤون منزلهـا . ولكن مقابل ذلك ، كانت جيما تحصل على فرص معتبرة، وصداقات متكافئة – ولو ظاهرياً على الأقل– في مقـــابلة جميع الناس الذين كانوا يأتون الى « الفيلة » . وكان القسم الكبير منهم من الملاّك ، في الجوار ، يأتون مع نسائهم وبناتهم.

كان العالم هذا عالماً ريفياً ، ما يزال على الطراز القديم ، وفي الوقت عينه ، كان عالماً ساذجاً ، ومتعجرفاً ، خسيساً ومجدباً. اما بالنسبة لجيما، التي كانت قـد اعتادت ان تعيش في عالم محدود ضيق ، فقد بدت لهـا

الأسماء الباهتة الآن ، العديمة الأهمية ، وموديلات الملابس التي تجاري روح العصر ، والتي كانوا يحصلون عليها من مجلات الموديلات الباريسية، وأحاديثهم التي كانت تتجه الى القيل والقال ، وتتناول مواضيع كانت تجهلها،كل هذه بدت اليها وكأنها اشياءٌ باهرة بكاملها ، ومرغوبة، يكتنفها الغموض .

اما من ناحية رب البيت ، فقد كان يعاملها بطريقة ما ، نائية ، فيها بعض المراوغة ، وبمودة ابوية تقليدية ، كما لو انه كان في الحقيقة يعامل احدى ابنتيه على اعتبار انها شقيقة بالرضاعة تماماً . ولم يحدث قط ـ ولا مرة واحدة فقط خلال هذه السنوات كلها ـ بأن سألها عن اخبار أمها .

وكانت جيما تخفي مشاعرها تحت ستار من الالفة والرضى ، وعدم المبالاة . اذ ان الشهرين اللذين كانت تقضيهما في «فيلة» هذه العائلة ، في كل عام ، كانا يعتبران الحدث الأهم ، والسلوى الوحيدة في حياتها . وكانت تجيب صديقاتها اللواتي كن يسألنها اين كانت تنوي قضاء الصيف :

« سأمضي الى فيلة آل كويرسيتو ! »

ثم تضيف عندما يسألنها عما ستعمل هناك .

« آه ! أعيش حياة جد بسيطة ، وحتى انهـا بالتالي ، تكون حياة مضجرة » .

ولم تكن لتدرك بأن صديقاتها الخبيثات بالكاد كن يقمعن ضحكتهن ويطرحن عليها كل هذه الاسئلة عمداً ، بقصد ان يرينها وقد اكتسى

وجهها مظهراً مصنوعاً، من الشعور الرتيب بعدم المبالاة والاعتماد الذاتي. كانت تُحس بطبيعة وانعطاف لا يقاومان نحو الحياة الاجتماعية المملوءة بالترف والخيلاء. ولم يكن خجلها من وضعها الحيـــاتي الخاص، ومن فقرها، بأقل قوة وطبيعة.

وهكذا كان الوضع على النحو التالي: بما انها كانت تبني الأوهام الكثيرة حول الجنة التي كانت تعتبر نفسها انها محرومة من دخولها، والتي كانت تحن الى ولوجها، فقد راحت تمزج الحقيقة بالأحلام، والأماني بالحقائق، والحاضر بالمستقبل، وتعيش هـــذا الاسلوب من الحياة تحت سيطرة الأوهام الخيالية الحارة، سواء منها التي كانت تبتدعها بنفسها، او التي كانت تُقص عليها فتستمع اليها دون ان يرمش لها جفن، وكأنها تؤمن بها هي نفسهـــا. وقد كانت من اسمج واحمق وابعد جميع الأكاذيب عن التصديق.

وبناء على قول جيا، فان الملابس التي كانت تتلقاهـــا كهدية من صديقتيها كانت هي نفسها تخيطها عند احد الخياطين المعروفين في فلورنسا. اذ ان أمها كانت تتحدر من عائلة نبيلة، وكانت تمت بصلة القرابة الى زوجة صاحب « الفيلة » المتوفية، وقد رفضت في حياتهـا الزواج من احد الشبان الأغنياء المعروفين جيداً. بالاضـــافة الى انها قضت الشتاء الماضي في روما، ونزلت ضيفة على احدى المركيزات. وهناك عِبارات اخرى شبيهة بهذه العبارات التي تحتوي على الكبرياء التافه. وكانت جرأتها

في سرد الأكاذيب تتزايد بالنسبة الى سخافة الأكاذيب ذاتها . ولما كانت خجولة بطبعها ، فقد كانت تتحمل السخرية والحياء بثرثرتها وبسردها لهذه الاكاذيب . في حضور الناس الذ يستطيعون معارضتها بسهولة !

وهكذا كانت تنتابها الحيرة التي تثيرها اهانة عاطفتها ، التي لا حول لها ، بانتهاء هؤلاء الناس الى الصمت دائماً ، وكأنهم يشكّون بذاكرتهم . ولكن كيف توصلت بهذا الشكل التـــام ، الى الخضوع لهذا النوع من النقائص ، هيَ نفسها لم تكن لتستطيع معرفة السبب . ولكن سواء كان السبب هو ان كذبتهـــا الاولى كانت اقرب الى الحقيقة من تلك التي توالت فيما بعد ، فخُيّـل اليها انها لم تكن تكذب قط ، وسواء كان ظنها بأنها تستطيع ان تخدع الآخرين ، كما تخدع نفسها ، فان الحقيقة القائمة ، هي انها قد غدت بسرعة ، معروفة لدى جميع صديقاتها ، ولدى اهالي البلدة بكاملها ، بأنهـــا كذابـة مضحكة ، ومزمنة ، بطريقة شـاذة فيها قلة حياء غريبة .

وكانت صديقاتها يسألنها عن قصد ، اسئلة رئيسية ، ويحرضنها ، وينصبن لها المصايد ، ويفرحن كثيراً عندما يرينها في النهاية وقد تظاهرت بمظهر اللامبالاة ، وبالرفعة الدنيوية ، هذا المظهر الذي كن يعرفنه جيداً . وتبدأ بالثرثرة ، وكأنها آلة أتوماتيكية تبدأ بالحركة عندما تدس فيهـا قطعة من النقود ؛ وتظل تلقي بأكاذيبها دونما توقف ، ولكن بتلك الثقة الذاتية ، الحيرى ، المألوفة فيها .

وكن يصرحن بأن مراقبتها ، وهي تثرثر بكل هذه الأكاذيب ، كانت تعتبر بمثابة لذة مفرحة ، بمثابة ابداع ، واخيراً بمثابة « فرجة » . وكان ثمة اتقان مسرحي ، بالفعل ، في هـــذا الاحساس المنكود ، وفي الاسلوب الآلي المتشابه دوماً ، الذي يعبر به عن ذاته . ودون ان تكون على علم بذلك ، كانت تنهي حديثها ، وهي متدثرة تماماً بدثار احلامهـا ، وتصوراتها الباطلة ، بأن تخلق حول نفسها هالة من العنف والسخرية ، والازدراء الباعث على التسلية .

واكثر من هذا ، فقد كانت تستمد شجاعتها في اسلوب الزيف هذا ، والمباهاة الكاذبة، من الشخص الذي كان المفروض فيه ان يردعها، ويقوّم اعوجاجها ، وهو أمهـــا ! فقد كان يكمن تحت قناع وضاعة الأرملة فوريزي ورثاثتها ، شيء من فقدان الشعور ، كالذي في ابنتها . لكن الفرق الوحيد الذي كان بينهما ، هو عدة تجارب قديمة ، كانت قد حدثت للأم ، فارغمتها على ان تقمع تلهفاتها وتضعها جانباً ، ــ ولكن بدون ان تتبرأ منها ــ في حين ان ابنتها التي ما تزال تعوزُها التجارب، ما برحت تفاخر بها جهراً .

ومن المؤكد أن أولئك الصديقات الخبيثات ، اللواتي كن يضحكن على جيما ، لم يكن بقادرات على ايقـــاع الارملة في حبائلهن ذاتها . فقد كانت امرأة فطنة ، وجد متخوفة ، اذ ما برحت ذاكرتها المليئة بالفشل المتكرر ، جلية واضحة . وكرجل سياسي هُزم ، لكنه لم ينثنِ ، فراحَ

يرى في ابنه الصائن والمدافع عن عمله وشهرته، كانت هي تراقب حماقات ابنتها، بعين اكبر من المحب للخير، بعين مشجعة ومؤيدة وايجابية.

وكانت جيا، عندما تعود من اقامتها المألوفة، في تلك «الفيلة»، حيث تكون قد اعدت نفسها للقيام بأعمال ادارة شؤون المنزل، تظل أمها لفترة شهر او يزيد، تحاول ان تجعلها تروي لها جميع الحوادث التي جرت لها هناك، وتعيد على مسمعها سرد كل حديث، مهما يكن عديم الأهمية، وتصف بدقة مظهر ووضع جميع الناس الذين كان لها الحظ في مقابلتهم. وفيما تكون الام مصغية الى احاديثها هذه، تبدو في عينيها الزرقاوين المسنتين نظرة الشباب الضاحكة، وتبدو وقد تغيرت. وبكلمات متمتمة، وباشارات من رأسها، كانت تظهر باستمرار، استحسانها لملاحظات ابنتها، معقبة عليها بموافقة.

وكانت جيا تسرد بعض اخبار القيل والقال عن حادثة زنى، او عن مكيدة اخرى دبرها اشخاص سبق لها وقابلتهم، او سمعت الناس يتكلمون عنهم. وأمها التي لم تكن لتتردد في ذمّ مثل هذه الهفوات، اذا ما كان مرتكبوها أناساً وضيعين، في البلدة، كانت تصيخ السمع فرحة، وتلمح من خلال تعابير الاستحسان او الفضول، الى أنّ مثل هذه الهفوات والزلات، ليست هي، بالنسبة لاولئك الاشخاص المشهورين، مباحة فحسب، وانما هي بمثابة واجب. كأن تملك سيارة، مثلاً، او تتحلى بمجوهرات.

وكان مطبوعاً في عقل المرأة ، بشكل دقيق مستعصٍ ، اكثر مما لو كان في عقل الابنة الذكي والمكشوف ، رسم غير حقيقي لعالم يعيش فيه نساء ورجال اغنياء ونبلاء، جميلو الصورة ، يتبادلون الشهوات الرعناء، في منازل تتضمن افضل وسائل الترف، ويبذرون موارثهم بطرق هوائية، مجيزين لأنفسهم في الواقع ، مزاولة كل نوع من الانغماس في الرذيلة تحت ستار كل الحدود الاخلاقية ، وكل الالتزامات الاجتماعية . هذا النوع من الانغماس ، الذي دلت اليه ، كان محرماً على اشخاص عاديين ، او على اشخاص من امثالها وامثال ابنتها ، يعيشون معذبين باحدى المصائب ؛ هؤلاء الذين يحيون بموجب قواعد تقليدية راسخة .

ومثل هذه التصورات تعود الى الايام المبكرة من شباب هذه الارملة ، الى الفترة التي كانت فيها مثل هذه التصورات واسعة الانتشار ، وكانت تُعطى الافضلية للأدب ، وللتقاليد الاجتماعية . لم تكن الارملة تعرف شيئاً عن الكتب او الثقافة ، وانما بقيت مخلصة لروح تلك الفترة ، كما كانت مخلصة لقبعتها ذات الطراز القديم ، التي كانت تعتمرها عندما تمضي الى سماع القداس .

ومن خلال رغبات الام هذه ، المملوءة بالحنين ، كانت جيا تستمد الثقة والالهام لمطامحها وكذبها . وبناء على هذه المواضيع ، كانت روح التفاهم بين الام وابنتها ، لها تأثير جسدي حتى . وكانت كلاهما ، اثناء محادثاتهما هذه ، تشعر بنسيان الغرفة ذات السقف المنحرف ، والأثاث

الريفي ، والزقاق المعتم ، الذي تطل عليه النافذة ، وبنسيان المستأجرين الثلاثة ، الذين يشغلون غرفاً ملتصقة ببعضها ، وبنسيان كل شيء آخر يدل الى الفقر . وكانتا تشعران بأنهما قد نُقلتا بقوة سحرية تقريباً ، الى عالم خيالي ، مصنوع من رغباتهما .

وبين الحين والآخر ، كانت تندى عن الام تنهيدة ، فيها نغمة أسف وندامـــة ، وتبدو وكأنها ستقول ! « وانا نفسي ايضاً عندما كنت في ريعان الصبا . . . »

الا انها كانت تتمالك نفسها دائمـــاً ، وتنتهي الى قول لا شيء . ومن ناحية اخرى ، فيما تكون جيا جالسة فوق غطاء السرير القطني ، تتكلم بطلاقة ، فيها حرارة وحيوية وخلاعة ، هذه الصفات الطبيعية ، لدلائل الذكاء ، والعاطفة غير المقيدة فيها ، كان يصدف ان يمر احد السكارى من تحت النافذة ، سانداً نفسه الى الجـــدار ، فيما ينشد اغنية سمجة وقحة ، بينما تظل هي متابعة حديثها ، وتمـــوء الهرر ، ويتعقب بعضها بعضاً فوق سلم الزقاق ، وتظل هي تتكلم ، وتتنــــاهى اليهما من برج الجرس ، في الكاتدرائية القريبة ، دقات ثقيلة معلنة انتصاف الليل ، بينما تظل جيا مستمرة في حديثها .

وكان يحدث دائماً تقريباً ، ان تنهض الام بهدوء وصمت ، وفيما تكون تقف امـــام المرآة ، في الظلمة المشبعة برائحة خشب الجوز المنبعثة من الصوان ، تبدأ ــ وهي ما تزال مأخوذة بحديث جيا ــ بحل شعرهــا ، واضعة الدبابيس فوق قطعة الرخام واحداً اثر الآخر .

وعندما لا يبقى على جسدها سوى قميص النـوم ، تتقدم من ابنتهـا وتقبلها مقاطعة اياها في ذروة تفجر محاضرتها ، ثم تبعث بها الى السرير .

وكانت جيا تمتثل لمشيئة امها وتترك الغرفة وهي نصف متحمسة ، ونصف قانطة . ولكنها عندما تطفىء النور في غرفتها ، وتلف الدثار حول جسدها المتأجج النحيل في الفراش ، كانت دائماً تقريباً ما تستجمع افكارها من جديد ، وتهيم وقتاً طويلاً في لجج من الاوهام العقيمة ، وبعد ذلك تنخرط في سبات عميق ، وهي تشعر بالسعادة .

## ٣

وقد حدث اثناء صيف من هذه الاصياف ، بأن أحس ابن صاحب « الفيلة » فجأة بوجود جيما ، كما يحدث في بعض الاحيـان ، ان تكتشف لون جدران غرفتك بعد ان تكون قد سكنتها مدة طويلة ، او تكتشف نموذج أرضيتها .

وحتى ذلك اليوم كان ما يزال يعامل صديقة شقيقتيه بتلك الطريقة الساذجة التي لا تشوبها ريبة ، والتي كان يعاملها بهـا ، في سالف الأيام ، عندما كانا يلعبان معاً وهما صغيران. اذ ان العـــادة الطويلة، والإلفة في صداقتهما ، قد ساعدتا على الابقاء على رسم جيما مغلفاً أمام عينيه ، بذات الجو الطاهر الذي يغلف شقيقتيه .

ومن الممكن القول ، في الحقيقة ، بانه بالرغم من حياتهما معاً ، في بيت واحد ، فلم يكن قط يراقبها بتيقظ . وبالنتيجة ، لو كان قد سئل عن حقيقة مظهرها ، لمـــا كان وجده أكيداً ، ولكان بالكاد تذكر بأنها كانت ممشوقة القامة ، وربما ليست بشعة .

ومع هذا ، فقد كانت جيما تعتبر بالنسبة اليه ، كما وبالنسبة الى الناس الذين كانوا يأتون الى « الفيـلة » ، كمدبرة لشؤون المـنزل ، بحيث يكون مكانها مع العمال ، اكثر منه مع الضيوف . والاشخاص الذين من امثالها ، يكونون موجودين بالفعل ، إلا انك تنظر اليهم دون ان تراهم . ولكن فجأة ، اضمحل شعوره هذا بعدم المبالاة ، وتبدل كل شيء .

حدث ذلك في أحد الايام ، في منتصف شهر آب ، وفي أحر فترة من السنة . ففي بعد ظهر ذلك اليوم ، وبعد الانتهـاء من الغذاء مباشرة ، ترك الشاب الذي كان يدعى بولو المنزل ، بعد ان حاول النوم عبثاً ، في غرفته المخمة ، المظلمة ؛ وسار بقصد ان يجد بقعه ظليلة ، حيث يستطيـع ان يضطجع وينال قسطاً من الراحة .

وكانت الفيلة القديمة والواسعة جداً ، بأروقتها ومصاطبها وابوابها الزجاجية ، وبمزيداتها الاخرى التي تعود الى فترات متعددة ، تقف مع حديقتها في وسط الحقول . وكانت وجهـــة المنزل تطل على سهل واسع مزروع ، وقد ارتفعت خلفه مباشرة ، قمم هضاب تملؤها الاشجار .

كان بولو قد خرج من تلك « القيلة » النائمة والمغلقة ، وسار متجها نحو الهضاب . وكان يعرف بأن ثمة غابة صغيرة من أشجار السنديان تقوم عند وهدة ، أشبه بوادٍ ضيق ولا تبعد كثيراً ، وقـد اتخذت « الفيلة » اسمها منها .

كان يشعر بالحر الشديد ، وهـــو يسير منكّس الرأس في حرارة الشمس ، يفكر باللاشيء ، وبدأ يسير مبتعداً في ممر ضيق ، ملفوف حول

سفح الهضبة. واستطاع من هذا العلو ان يرى الفيلة بكامل زجاجها الذي يبرق تحت نور الشمس، ومن خلفها السهل الكبير، المرشوش بأشجار الزيتون في مسافة بعيدة، بعيدة جداً، تمتد حتى الافق الأبيض بغشاوة الحرارة.

وكان يسمع دمدمة حشرات تنبعث من خلال العوسج المنتشر في جانبي الدرب، مصحوبة بصوت الجدجد الأجش والمغم. بينما راحت العظايا[1] تزحف بين قدميه، فوق الصخور الداكنة الحامية. كانت حرارة الشمس تتأجج، وقد بدت متآلفة هي والسكون.

وعندما وصل الغابة، دخل تحت الاغصان المنخفضة، باحثاً له عن مكان يضطجع فيه. كانت الارض ناعمة، وسوداء عارية إلا من بعض اوراق الأشجار اليابسة، وثمر البلوط، وبعض الاغصان.

لم يكن المكان بالطف برودة من اي مكان آخر. وفي الواقع كان الهواء المحصور، والمليء بالبعوض، يبدو اكثر لزاجة واختناقاً. إلا انه استطاع ان يهرب من تألق الشمس المعمي، وهي تحترق في قبة السماء، ومن وجودها الملتهب الساكن.

ولم يطف طويلاً حتى عثر على صخرة مغطاة بالطحلب، ترقد بين جذعي شجرتين. وظناً منه انه قد يكون خلف هذه الصخرة

---

(١) العظايا، مفردها عظاءة وهي دويبة اصغر حجماً من الحرذون، وتعرف عند العامة بالسقاية، وهي انواع مختلفة.

فسحة ملائمة ، وضع يديه عليها وانحنى فوقها مستطلعاً . واذا به يرى جيما ، مضطجعة فوق الارض وكأنها تغط في النوم .

كانت تنام على جنبها ، واضعة يديها فوق رأسها بطريقة كانت تخفي وجهها ، وقد سمح ثوبها الحريري الأحمر والناعم باظهار خطوط جسدها النحيف واضحة .

ولاحظ بولو بخاصة ، كياسة ونحافة فخذها التي كانت تبدو بوضوح، محددة ، بدءاً من الورك حتى الركبة ، وكانت طويلة ، بحيث لم تكن تبدو متناسبة . ولاحظ كذلك كيف كانت تبدو ذراعاها العاريتان باردتي المظهر ، تغلفها بشرة شاحبة ، بخلاف شعرها الناعم ، الكثيف والمتلألىء ، بحيث يضفي ظلاً أسود على زنديها .

وأدهشته كل هذه الصفات في جيما، كما لو أنها لم تكن الفتاة التي سبق وعرف، وانما امرأة مختلفة شهية، ولا يعرفها. وشاء أن يتفحص وجهها، لأنه كان يشك ، بعد طابعها الجديد المربك هذا ، بأن يجد فيه الملامح التي ألفها فيه .

وهكذا أخذ غصناً صغيراً ، وشرع يدغدغ بـــه ذراعيها بنعومة . فراحت وهي ما تزال نائمة ، تحرك كتفيها اولاً بطريقة بطيئة ، ثم تهبط بذراعها وتمدها على طول جنبها، كاشفة بذلك عن وجهها المتورد الحامي، حيث تعلو وجنتيها خصلة من شعرها الأسود والأجعد . وبدا وجههـا جديداً بالنسبة لبولو كجسدها، ولم يكن يخلو من مسحة من جماله الخاص، جمال عنيف ، أشم ، لم يسبق له ولاحظه .

كانت جيما، وهي نائمة، تبدو متجهمة الوجه، وكانت تجعد خيشومي أنفها الأقنى ، وتظهر على فمها تقطيبة ازدراء ، كما لو انها ناتجة عن شعور بالقرف . ولاحظ بأن شفتيها نصف المنفرجتين ، كانتا شهيتين ومليئتين بالدم الاحمر الداكن ، الذي أشبه مـــا يكون بجمرة الثمر ؛ وقـد بدتا منتعشتين بذلك التنفس الهادىء أثناء النوم . هاتان الشفتان ، نصف المنفرجتين ، بعثتا فيه على الفور شعوراً برغبة جـــامحة ! ولو لم تكن الصخرة في طريقه ، لكان انحنى وغيبها في قبلة طويلة .

الا أنه عوضاً عن ذلك ، قرر أن يصحيها ، وراح يناديها باسمها عدة مرات ، وبصوت هادىء خفيض في البدء ، لم يلبث ان رفعه .

أخيراً استفاقت من نومها ، وفيما كانت تستيقظ أتت بحركة جاءت تكملة لسيطرتها عليه، كانت حركة واهنة ، أدارت معها رأسها وكتفيها الى ناحية الصوت ، وهتفت :

« آه ! هذا أنت ! »

قالت بصوتهـــا الطبيعي ، الذي اعتادت ان تنطق به في علاقتهما المألوفة .

ولكن عينيهما التقتا في ذات اللحظـة ، وشعرت هي بالارتبـاك ، فنهضت قائلة ، وهي تحني رأسها :

« لقد كنت نائمة » .

ولكن حتى فيما كانت ترتب من وضع ثوبها ، مربتة عليه بعنف ، بيديها النحيلتين ، والبشعتين نوعاً ، راحت تمعن التفكير بالنظرة التي

رآتها في عيني الفتى ، وترمي بنفسها بكل مـــا فيها من عنف تصوراتها الوهمية الساذجة ، في تلك الطريق التي لم يُشك في أمرهـا حتى الآن ، والتي بدت وقد انفتحت امامها فجأة .

وكررت :

« كنت نائمة » .

ورفعت اليه وجهاً ، ما أسرع مــــا أدهشه ؛ كان وجهاً مختلفاً عن وجهها العادي المالوف ، وجهاً طافحاً بالغنج الماجن .

وقالت :

« ولكن ما دمت قد أيقظتني ، ففي وسعك على الأقل ان تأتي وتظل بصحبتي » .

ووافق الشاب ، وبقفزة واحدة كان يجلس بجوارها .

وبعد ذلك بقيا معاً طوال بعد الظهر يسيران بين التلال ، ويجمعان ازهاراً برية ، شاءت جيما ان تجعل منها باقة كبيرة . ولم تكن أحاديثهما في ذلك اليوم لتختلف باي طريقة عن الأحـاديث التي كانا يتبادلانها فيما مضى ؛ وقد تضمنت أسلوباً ونغمات حديثة . كما لو أنهما كانا قد أدركا باطنياً ، ومنذ اللحظة الاولى التي التقت فيها نظراتهما ، بأن عهداً جديداً قد طرأ على عــــلاقتهما ، مصطحباً معه مستقبلاً مضموناً متحرراً من سلطان مشيئتهما .

ولذلك سيكون من الافضل ألا يستعجلا الحوادث . وان يتركا القدر الذي جمعهما معاً ، يأخذ مجراه الطبيعي .

وكانت جيما تفوق بولو حبوراً واكثر منه تلميحاً ، وكانت تبعث على الظنون . إذ ان بولو كان يملك عقلاً بسيطاً متحرراً ، كذلك الذي يملكه الأشخاص السريعو التأثر، فلا يتكلف المراوغة او الخداع، ويمكّن صاحبه من رؤية نتائج جميع أعماله رؤية مباشرة وتامة . وفيما كان يسير الى جانبها ، راح يحاول كبت مشاعر هياجه ، كلما شعر بها ترتفع لتبدو للعيان .

ومضى يقول لنفسه بأن جيما هي صديقة شقيقتيه ، وكان يبدو من خلال طبيعة العلاقات القائمة بينهن ، حتى الآن ، بأنها علاقات أشبه ما تكون بين أناس بينهن بعض القرابة .

وفضلاً عن ذلك ، لم يكن في وسعه ان يتذكر كم كانت مسكينة ، وعديمة الحيلة، وكيف انها كانت وهي مكرّمة في « الفيلة » بشكل لا يخلو من الاحسان ، تجد نفسها في وضع الاتكالية والدونية .

وخلص أخيراً الى ان جميع هذه الامور التي فرضت عليه الحصافة الكبرى ، والتي لو سمح لنفسه صدفة ، بأن يرتكب أية حماقة ، فستضعه وتضع جيما كذلك ، في وضع زائف وغير سار .

وهكذا ، وفيما كان يتأرجح بين هذه الافكار ، كان يبدو انه موافق على تغنجات الفتاة الواضحة ، في جميع الطرق التي بدت سائغة ، ودون ان يخفي عواطفه ، ولكن دون أن يعبر عنها بأعمال لا تداوى كذلك ، اذ انه كان يشعر في مدة لا تتعدى اللحظات ، برغبة جامحة لا تقاوم . لقد كانت لعبة خطرة،واكثر من ذلك، لأن جيما كانت قد أدركت مدى تحفظه

وعلى هذه الحال من الضحك والمزاح المشترك ، طوال الوقت ، قضيا بقية يومها ثم عادا معاً الى « الفيلة » في وقت الغسق تقريباً وكانا تعبين وفرحين .

ولم تأتِ الايام المتعاقبة ، بتغيير ما على علاقتهما ، فقد كانا يمضيان بضع ساعات معاً ، يسيران عبر الهضاب ، خلف « الفيلة » . ولكن بالرغم من شعور بولو القوي بالرغبة ، وبالرغم من اغراء جيما له بغنجها ودلالها ، فقد ظل عاجزاً عن التصميم للافصاح لها عن مشاعره .

لان الفكرة ، بأن جيما تجد نفسها مكرمة بداعي الاحسان ، وتجدها تعيش في « الفيلة » ، في وضع دوني – وضع مدبرة شؤون المنزل تقريباً – كانت تمنعه من التصرف معها بتلك الحرية والصراحة اللتين يتصرف بهما مع اي صديقة اخرى ، من صديقات شقيقتيه ، عندما يحاول مغازلتها والتودد اليها .

وقد خُيّل اليه بأن جيما ، نظراً للوضع التي هي فيه ، ينبغي إما ان يتم الاقتران بها ، وإما ان تُترك وشأنها ، وبأنّ أية طريقة اخرى في العمل لن تقود الى عملية حب سهلة ، وبخاصة بين أشخاص هم في نفس العمر ، وانما ستوصل الى مغامرة سرية عنيفة ، وغير مسرّة ، ولا بد من ان تكون رائحتها فاسدة .

أما الآن ، وبالرغم من ولعه بها ، فان فكرة أخذها زوجة له ، ما تزال بعيده الاحتمال . ومن ناحية أخرى ، فقد أدرك بشيء من الخجل ،

والازدراء، بأنه كان يشعر كل يوم بالتقرب اكثر فاكثر في العلاقة البغيضة بين سيد ومخدومته ، ويشعر دائماً ببعض الخجل ، بأن يتكلم اليها امام شقيقتيه ، وأمام أُناس آخرين ، باسلوب اكثر اكتراثاً من العادة .

وكان يحس عندما يخرج معها ، بشعور التواضع والشهامة ، وكان دائم الشعور بالميل الى لقائها سراً تقريباً ، في فترة القيلولة ، أو ليلاً ، عبر الأروقة ، او في أمكنة اخرى مهجورة ، كما كان سيفعل تماماً ، لو انه كان بالفعل يقوم بعملية الحب مع مدبرة شؤون منزله .

وكان يزداد غضباً من نفسه، لاحساسه بهذه المشاعر التي يعدها ظلماً، وغير لائقة منه . ولم يكن يدرك بأن تصرف جيما الدوني ، والتخميني، هو الذي كان يثيرها ويبرر وجودها . ولكان شاء ان يعتبرها من ذات المستوى ، ويقوم معها بإحدى عمليات الحب المفرحة ، التي لا تؤذي أحدهما ، والتي تكون دوماً كمقدمة لعملية الزواج .

إلا انه ، عوضاً عن ذلك ، كان يجد نفسه ، بالرغم من اي مجهود كان يقوم به ، منساقاً نحو رغبة خفية ضخمة ، من ذلك النمط الذي يبدو من نقطة البدء ، بأنه يستثني كل امكانية لايجاد الحل بالزواج ، ويغذي نفسه، ليس فقط بعدد من الرغبات الغامضة، ولكن بمشاعر ليست كتلك التي لها اتصال بالحب ، وانما بمشاعر وليدة الاشمئزاز والعنف والازدراء .

وظل أياماً عدة ، موزعاً بين هذه الدوافع المتناقضة ، محاولاً بقدر استطاعته ان يظل مسيطراً على نفسه ، حتى انه في النهاية ، وفي احدى الليالي ، قبل موعد مغادرة جيما بيومين ، شعر بأنه لم يعد يستطيع

المقاومة اكثر من ذلك ، فترك غرفته بعد ان قرر الذهاب الى غرفة جيما ليقرع بابها ، مع العلم انه هو نفسه ، لم يكن يدري ماذا سيفعل . وفضل ان يعتقد بأنه سيحصر الموضوع في عملية البوح بحبه .

كان باب غرفته وغرفة جيما ينفتحان على غرفة كبيرة ، متقنة الأثاث ، اعتاد ان يجتمع فيها افراد البيت ، اثناء النهار . كانت الظلمة الحالكة تخيم على الغرفة ، ومضى هو يتحسس طريقه إلى الأمام ، تارة يصطدم بكرسي ، وطوراً بطاولة ، وفيما كان يقترب لم يكن يستطيع ان يلاحظ غرابة وعدم لباقة هذا الغزو الليلي ، لهذا المكان الذي تتحدث وتمزح فيه شقيقتاه مع صديقاتها أثناء النهار .

وعندما اصبح في وسط الغرفة، رأى خيطاً رفيعاً من النور يتسرب من تحت باب غرفة جيما ، ومع انه شعر بهياج بالغ لمجرد تفكيره بأنها ما تزال صاحية ، كما لو أنها في انتظاره . فقد راح يسترشد بهذا النور ، ويسير بأكثر سهولة .

وعندما بلغ بابها ، توقف للحظة متردداً ، ثم حزم أمره وقرع الباب ولكن لشد ما كانت دهشته كبيرة ، اذ لم يكن صوت جيما هو الذي دعاه للدخول ، وانما صوت احدى شقيقتيه .

كانت جيما في الفراش ، تجلس فوق وسادتها ، وكان ظهرها مسنداً الى الجدار ، ويداها النحيلتان فوق الدثار . كانت ترتدي ثوب النوم الأزرق الشفاف ، المزين ببعض الورود الحمراء ، وقد بدت فاترة الهمة وفي وضع عشقي ، كما تبدو النساء غالباً ، عندما يكن في الفراش .

وكانت تجلس عند قدميها شقيقة بولو الكبرى ، التي تدعى آنّـا ، وهي ما تزال في ثيابها العادية . وكانت فتاة ظريفة وغبية ، تناهز الثامنة عشرة من سنيها . وقد بدت على وجهها هيئة الحزن المفرح ، كالمرء الذي تسيطر عليه شكوك مشكلة مفرحة وفيها اطراء .

وهتفت عندما رأت أخاها :

« لقد جئت في اللحظة المناسبة تماماً » .

وتلعثم الشاب فيما كان يتقدم باعتـذاره ، مستفهماً ، وهو مـا يزال منفعلاً من جراء المفاجأة .

« أنتِ اخبريه ، أيتها العزيزة جيما ! »

هتفت آنّـا ، ولكن لم تكن لهجتها لتخلو من بعض التكلف ، رامية نفسها فوق السرير ، وآخذة يد صديقتها في يدها . ثم استطردت :

« أنتِ اخبريه ... حقاً اني لن اعرف كيف سأشرح القضية ... »

وتحول بولو الى جيما التي مضت تشرح بلهجة مميزة ، فيها شيء من لهجة الامومة تقريباً ، كيف أن رجلاً ، وهو ضيف في « الفيلة » الآن ، طلب في ذلك اليوم من شقيقته ان تكون زوجة له . وبهذا الخبر ، راحت جيما ، كخبيرة لهـــا معرفة باطنية بمثل هـذه الامور ، تضيف بعض ملاحظاتها عن ذلك الرجل ـ الذي يملك على حد قولها ، عدة صفات حميدة وبخاصة أنه يملك تلك الصفتين ، الاولى انه غني ، والثانية انه من عائلة محترمة .

لكن آنّـا هزت كتفيها استهانة ، ظناً منها ان مثل هذه الصفات قد

تهم جيما المسكينة ، والوضيعة ، ولا تهمها هي نفسها . ومع ذلك فقد أجابت بأن الاقتراح كان مفاجئاً للغاية ، وقد كانت تشعر بأنها لم تكن على أتم الاستعداد لهذا الموضوع ، لذلك لم تستطع ان تحكّم عقلها .

وهنا شرعت جيما تحاول ان تقنعها ، بحماس مليء بالتصنع والسماجة، وكأنه نموذج أولئك الاشخاص الذين يُعتمد عليهم، عندما يحاول رؤساؤهم اشراكهم في الثقة حول موضوع جدلي ، لا يمت اليهم ، ولو عن بعد، بأية صلة .

وتحمست جيما لعملها هذا ، ممتلئة بنوع من الاخلاص الغيور والفضولي ، وراحت تشرح مباهج مثل هذا الزواج ، مثنية على ذلك الرجل وعائلته، مع أن معلوماتها عنه وعن عائلته كانت طفيفة، وراجية آنّا أن تفكر بالموضوع ملياً ، قبل أن تعلن رفضها النهائي . وقد كانت تتكلم بحرارة واصرار بحيث قاطعتها صديقتها فجأة ، بلهجة الغدر المنتبه :

« أرجوكِ لا تثوري ، من الطبيعي أن الموضوع يتعلق بكِ الى حدٍ . ولكن عندما يستمع اليك المرء، يحسب أنكِ انتِ التي ستتزوجين وليس انا » .

كانت هذه ملاحظة قاسية من آنّا ، وبخاصة لأنها منذ دقائق ، كانت ترجو جيما لكي تبدي رأيها في الموضوع.

وجيما لم تكن على استعداد لهذا ، فدست نفسها في هذا العمل ، مانحة إياها الثقة العمياء ، بحماس ذليل ، غير متبصر ، اوضح ذاته في الطريقة

التي احمرت بها ، عندما صمتت للحظة ، وفي هيئتها المشوشة المحزنة، التي دلت الى أن مشاعرها قد جرحت .

وأجابت أخيراً ، محاولة اخفاء خيبتها خلف مرحها الذاتي :

« ان هذا لا يؤثر بشيء ! كنت أتحدث فقط . . . ولكن أنت التي طلبت إليّ أن أملي عليكِ رأيي . . . واني اخبرك ماذا افعل لو كنت مكانكِ » .

هذه الملاحظة كانت اكثر اخلاصاً من ملاحظات الحديث بكامله ، وقد فتحت عيني الشاب فجأة . وخيل لبولو بأنه كان واضحاً بأن كل هذا الحماس كان ناتجاً عن ان جيما ، فيما كانت تلقي بالنصائح الى صديقتها كانت بالفعل ترى نفسها مكانها ، كما زعمت . ومهما يكن من امر ، وسواء أكانت مدركة هي ذلك او لم تكن فثمة مسألة استبدال أبعد كذلك ، في هذا التنسيق .

اذ انها كانت تضعه هو – بولو – في مكان ذلك الرجل ، الذي يطلب الزواج من شقيقته . وكانت تلمح اليه واليها ، بكل ما قالت ، كما وانها كانت تظهر فوائد وسحر زواجها هي من بولو ، وليس زواج آنّا من ذلك الشاب . وهكذا ادرك مـــا كانت تفكر به ، وكان امر التقرير يعود اليه .

هذه الافكار أعادت اليه بالتمام، الشعور بالحقيقة التي كانت قد افقدته اياها رغبته المضطربة . وفجأة أحس بالخجل من الرغبات والاغراض التي ساقته للدخول الى غرفتها .

وبدت له جيما ، من جديد وبوضوح تام ، كما كان يراها دائماً ، فتاة عديمة الحيلة ، وبائسة ، نظراً لشفقته او لشفقة اي شخص آخر ، يود ان يستغلّ نقطة ضعفها ، وأقسم على أنه ، منذ تلك اللحظة ، سيكف عن التودد اليها وحتى لو كان تودداً بريئاً .

وشعر بأن قراره هذا يزداد قوة عندما فكر بأن بعد يومين ستكون جيما قد تركت « الفيلة » . وفي السنة القادمة ، سيمضي الصيف في مكان آخر ، او على اي حال،سيبقى محتفظاً بعبـــاراته الباردة المتحايلة التي كانت في علاقتهما السابقة .

وفي هذه الغضون ، كانت المحادثة ما تزال مستمرة بين آنّا المرتابة ، وبين جيما المتحمسة التي تحاول اقناعها . ومن وقت لآخر ، اثنـاء هذه المباحثة ، كانت آنّا ترمي أخاها بنظرات جريئة، او تسأله رأيه في بعض الامور ، محاولة اشراكه في الموضوع .

الا انه كان يتجنب الخوض في الحديث ، ويحوّل عينيه ليتـــلافى الاصطدام بعينيها . وفي النهاية هب واقفـاً وتمنى للفتاتين ليلة طيبة ثم غادر الغرفة .

## ٣

لم يكن بولو مخطئاً في افتراضاته . وكقطعة من الصوفان [١] الجاف، التي لا تحتـــاج الاّ الى شرارة لتشتعل ، هكذا كانت مخيلة جيما التي لم تطلب اكثر من هذا التودد الساذج من الشاب ، لتشعلها بالآمال الوهمية .

ومن الممكن القول في الحقيقة، بأنها منذ اليوم الاول للقائها في الغابة، وهي تعيش من اجله فقط . وليس بأقـل حقيقة من القول بأن المسألة كانت مسألة طموح وزهوٍ ، لا مسألة حب ، لكن جيما كانت في سن لا تكون فيها المشاعر مميزة ، وانما تظل مشوشة ، وطيبة وسيئة في آن معاً، تنصهر في بوتقة رغبتها الجامحة الوحيدة في الحياة .

وهكذا لم يكن التفكير ببولو لينفصل في مخيلتها مطلقاً ، عن الأمل بالهروب السريـع ، بواسطة الزواج، من حالة الفقر والدونية التي تعاني حالياً . وكانت تنتظر كل يوم بفارغ الصبر ، ان يفصح لهـا الشاب عن

(١) Tinder : الصوفان وهو شيء يخرج من قلب الشجرة رخو يابس تقدح فيه النار .

مشاعره ، أو يعرض عليها اقتراحه الذي لطالما حنت اليه ، وفكرت به ملياً . وهذه الرغبة التي تجتاحها ، كانت رغبة حماسية ، اقوى بكثير من تلك الرغبة المتسببة عن احساساتها، والتي ما تزال خجلى وغير مستيقظة، بحيث كانت في بعض الاحيان ، تشكل نوعاً من انواع الذهول .

وهكذا كان يحدث : كانت في المساء تركع امـــام صور القديسين ، وتبتهل من اجل تحقيق آمالها ، او انهـا كانت تضطجع في سريرها بعد الغذاء ساعة تلو الاخرى ، في أشد أوقات النهار اختنـاقاً ، منهمكة في أوهامها الفطرية ، تضع تصميماً مفصلاً عن الحياة التي ستحياها بعد هذا الزواج المحتم ، المحقق . كانت ترى نفسها في بيت جميل ، في مدينة كبيرة، محاطة بالأصدقاء الذين يُدعون من كل مكان وهم أغنياء، معروفون جيداً، وأرفع بكثير من مستوى الناس العاديين .

كانت احلاماً تافهة وحمقاء ، ولكنها كانت تستمد غذاءها من حياة القساوة والذل والحسد ؛ وكانت تداهم مخيلتهـا بطريقة مفصلة دقيقة ، فيها هلوسة وعنف غير طبيعيين ، كرؤى عالم مثالي . وفي ذات الوقت ، وبدون ان تدرك هي ذلك ، ومسيّـرةً بواسطة ضجرهـــا وطموحها ، كانت تخدع نفسها تدريجياً ، بطريقة ساذجة وطبيعية تماماً :

وفيما كانت تنتظر كل يوم ، افصاحه لها عن مشاعره ، هذا الافصاح الذي لم يحدث ، وفيما كانت نهاية زيارتها تزداد اقتراباً، فقد بدأت تتساءل ما اذا كان من المناسب أن تتخطى حدود الدلال الشريف ، وتحاول اثارته بواسطة احدى طرق التملق المسببة للشبهة .

اذ لم يكن عندها شك من حب بولو لها، فهل عليها أن تشجع فيه هذا الشعور بأن تمنحه نفسها ؟ أم ان عليها ان تمانع ؟ هنا تكمن المشكلة بكاملها : هل ستفلح عن طريق تقديم نفسها له ، بالزواج منه ؟

وهكذا أصبحت امرأة أنانية ، وهي منساقة بالعاطفة دون ان تدري ذلك ، وبدأت تنظر الى جاذبيتها كأداة نافعة ، تستعملها كلما وجدت اليها حاجة .

وفي وسط هذه الشكوك ، برزت المفاجأة ، زيارة بولو في الليـــل ، الحقيقة الجلية التي لا يمكن ان يكون ثمة شك في مغزاها . وتأملت بأن الشاب كان مغرماً في حبها بطريقة جدية ، ولو لم تكن شقيقته موجودة، لكانت استطاعت تلك الليلة ، بقليل من الذكاء ، وبلمسة عـاطفية ، من غير ان تذعن له كثيراً ، بأن تنتزع منه كل الوعود التي تريد .

وملأها هذا الشعور بالفرح ، وفي ذات الوقت بالكدر ، كل ذلك لأنها فقدت ، وربما الى الابد، أثمن فرصة ، وذلك من أجل آنـّا السخيفة . وقد ظلت لفترة طويلة بعد ذهاب صديقتها مضطجعة تتأمل فيما يجب عمله.

وكانت آناً تلعن حظها السيىء، وآناً آخر تتساءل بدهشة فيما اذا كان أفضل شيء بالنسبة اليها، هو ان تذهب بدورها، وتطرق باب غرفة بولو وأحياناً كانت تأمل لو انه يعود من تلقاء نفسه ، وتروح تصيخ السمع بحرص شديد متوقعة سماع خطواته وهو يعبر صالة الجلوس .

وقد كانت متأكدة من شيء واحد وهو انها قد امسكت به بجماع كفها ، ولا حـاجة لعمل اي شيء ، ولتترك الموضوع لعوامـل الزمن .

وهذه الفكرة في النهـــاية ، أقنعتها بألا تقوم بأي حركة ، وبأن تقتنع بالنصر الذي احرزته بنوع ما تلك الليلة . وهكذا مضت تغط في سباتها، والراحة تخيم عليها تقريباً .

ولكن في اليوم التالي ، وبعد ان استفاقت ورأسها مملوء بالأغراض والآمال ، اكتشفت ولشد ما كانت خيبتها كبيرة ، بأن الشاب بولو ، قد سافر الى روما ، من اجل امتحاناته الجامعية ، كما قالت شقيقتاه .

وراحت تنتظر قلقة ، طوال اليومين اللذين بقيا لها في « الفيلة » ، ثم طوال يومين آخرين ، خلقت لهما أحد الأعذار للبقاء . إلا انها تسلمت منه في اليوم الثالث ، بطاقة بريدية تحمل لها تحياته . وأدركت في اليوم الرابع انه لن يعود فى ذلك العام مطلقاً ، وأذعنت للمغادرة .

كان فصل الصيف قد ولّى آنذاك ، وبدأ الجميع يتركون « الفيلة » ، وقد أوصلها الى بيتها شابان كانا يمران بسيارتهما في طريقهما الى رومـا . كانت رحلة ممتعة ، ولم تفعل جيما وصديقاها شيئاً طوال الوقت ، سوى الضحك والمزاح .

لكن الشابين الآخرين كانا يقومان بذلك باخلاص أعظم من اخلاص جيما ، التي كانت تعود الى البيت دون ان يكون لها ادنى رغبة في ذلك ، والتي لم تكن ضحكتها لتعبّر عن حبور صحيح ، بقدر مـا هي محاولة لإضاعة وعيها ، ونسيان همومها .

وكانت الهضاب التي عرفتها جيما جيداً ، تبدو في النهاية، عند الافق، بحذاء حافة السهل الواسع، ومن ثمّ تبدو البلدة سوداء لامعة ، فوق قمـة

المضاب ذاتها، ولكن الأكثر بعداً، بما فيها من بروج وسطوح وجدران، كدرع فولاذي في ضياء سماء الخريف المنهك .

وأمام هذا المنظر أحست بقلبها يغوص، مع انها استمرت في ضحكها وثرثرتها ، فيما كانت تشعر بأحد انواع الهواجس الكئيبة ، كأنّ تلك البروج ، ومداخل البيوت الفولاذية ، وتلك النوافذ البعيدة ، التي كانت تبرق فوقها من وقت لآخر أشعة الشمس الغاربة ، المنحرفة ، كانت تُظهر لها وجهاً من الرعب يتوعدها بأشد فصول الشتاء حزناً في حياتها .

« آه ! لِمَ لا نستمر، لِمَ لا نستمر في طريقنا الى روما ؟»

سألت جيا فجأة ، وبصوت عاطفي بحيث أجابها الشاب الذي كان يقود السيارة ، بلهجة لا تدل الى الاحترام الشديد ، بأنها اذا كانت تحتمل السُكنى في منزله ، فسيأخذها الى هناك في الحال .

إلا ان جيا احمرت خجلاً ، وهددته بالأخذ بكلامه ، بلهجة مازحة، أما هو فقد حاول ، جارحاً كبرياءها ، بأن يفهمها انه كان يقصد ما يقول وهو حاضر ، في حال قبولها لعرضه بأن ينفذه .

وبين الهزل والاثارة، وصلوا البلدة وقد كانت الظلمة مخيمة، فتركتها جيا في ساحة الكاتدرائية ، وسارت عائدة الى البيت ، في حين استمر الشابان في طريقهما الى روما .

## ٤

كانت شؤون المنزل هذه دائماً تبعث على الشعور بالكآبة القصوى . فبعد رحابة تلك « الفيلة » والراحة فيها ، كان البيت الصغير القائم في ذلك الزقاق ، بسلّمه الضيق ، وغرفه الصغيرة الريفية ، يبعث في نفس جيا شعوراً قوياً بالتعفن والتعاسة ، بحيث كانت دائماً تقريباً ، بعد أن تعانق امها ببرود ، تقصد الى غرفة الحمام وتقفل عليها الباب – وكانت هذه الغرفة الوحيدة التي يمكن ان يُقفل بابها – وهناك ، وفي تلك الزاوية ذات الرائحة الكريهة ، تقف محدقة عـــبر النافذة الصغيرة ، وهي شبه حالمة ، بالحدائق الملأى بالشمس ، وتروح تبكي براحة لبضع دقائق .

وهذا الانفجار في البكاء كان يسعفها ، ومن ثمّ كانت تغسل عينيها الحمراوين المليئتين بالدمع بالماء البارد وتعود الى امها . إلا ان الام ، التي تعتمل فيها ذات المشاعر التي كانت تعتمل في ابنتها ، كانت تبدو وقد ادركت ، وجدانياً ، مرارة مثل تلك العودة .

ومع انها كانت تحب ابنتها كثيراً ، وتُحسّ برغبة جياشة لرؤيتها

ثانية، فلم تكن لترحب بها قط ذلك الترحيب المبهج الذي قد يلهب مشاعرها. وبالعكس ، فقد كانت اكثر برودة ومراوغة من ابنتها حتى . فكانت تطرح عليها عدة اسئلة تتعلق برحلتها ، وبزيارتها ؛ ثم تقفل عائدة، دون أي جلبة ، الى مطبخها او الى خياطتها .

إلا ان المرارة في هذا العام قد خفت من جراء عامل الأمل الساذج ؛ فقد كانت اكيدة من انها عائدة الى بيت اخنى عليه الدهر ، بعد فترات الراحة التي قضتها طوال أيام الصيف . لكن ذلك الشعور بالمرارة لم يدم طويلاً ، إذ ان عقلها كان مشغولاً بهذه الحقيقة ، وقد ظلت طويلاً تتحدث عنها بحيث غرب عن بالها ان تُظهر ذلك المزاج التقليدي السيىء والمزدري ، الذي كانت تدل به في السنوت الماضية وحالما تدخل عتبة البيت ، الى نهاية فصل الصيف .

أما في هذه المرة فقد هرعت الفتاة من مسافة غير اعتيادية الى أمها لتضمها ، وقد أبدت لها الام ، مُشجَعة بهذه المعانقات الودية، ملاحظاتها بأن وجنتيها كانتا اكثر تورداً ، وعينيها اكثر حيوية مما كانتا عليه عندما ذهبت .

« يوجد لهذا سبب » .

أجابت جيها وقد تلاقت عيونهما في هذه الكلمات ، فسبرت كلٌ منهما غور الاخرى ، وبدأتا من جديد تتعانقان بحرارة .

وفيما بعد ، وبعد ان رتبت جيها حقائبها ، دخلت الاثنتان غرفة

الطعام وجلستا الى المـــائدة في الوسط ، والقت الام بالأسئلة المتوقعة على ابنتها :

« من هو ؟ وكيف حدث ذلك ؟ »

وبدون ان تذكر الفتاة اسم بولو ، مضت اولاً تضع بياناً مفصلاً عن حظها السعيد . وخلصت اخيراً الى الاستنتاج بأنْ وصفت نفسها بأنها جدُ متأكدة من الزواج الذي على حـــد رأيها ، كان قد تم الآن ، لو أن صديقتها لم تكن موجودة ، عندمـــا أتى الشاب وطرق بابهـــا ، في تلك الليلة .

لم تبدُ أمها مقتنعة كلياً ، غير انهـــا لم تشأ عندما رأت الفتاة جد مشغوفة ، بأن تخيب ظنها ، فلم تقل شيئاً غير السؤال للمرة الثانية عن اسم الشاب . فأجابت جيما بفرح :

« خمّـني » .

وبدأت الام تطرح الأسئلة والاشارات ــ وكما يحدث في احـــدى « اللعبات » عندما يكون احدهم يحاول معرفة شيء محجوب عنه ، فتقول له انت :

« انه حار ! » او « انه بارد » نظراً لاقتراب اللاعب مـــن معرفة الشيء او بعده عنــه ، ظلت جيما تقول لها ما اذا كانت تقترب او تبتعد عن معرفة الحقيقة .

ومهما يكن من أمر ، فبالرغم من المعلومات التي تبلغتها من ابنتها ، وبالرغم من الاسماء التي ذكرتها، فلم تستطع ان تصل الى التخمين الصحيح. وفي الحقيقة فقد بدت بأنها تحاول جاهدة ان تستثني بولو من الموضوع .

لكن جيما هتفت اخيراً بنفاد صبر :

« ولكن هل من الممكن حقاً ، بالا تستطيعي معرفة الشخص ؟ إن ذلك لجد سهل في الواقع . . . إنه الشخص الاول الذي كان ينبغي ان تاتي على ذكره . . . وليس ثمة من حاجة لكل هذا التعداد والتوسع » .

« من هو إذن ؟ »

« إنه بولو ، وهذا واضح ! لِمَ لمْ تتذكريه في الحال ، بحق السماء ؟ »

كانت تتوقع منها كلمات تهنئة ، أو أي أسئلة أخرى ، على كل حال . غير أنها عوضاً عن ذلك ، لاحظت أن أمهـــا قد خرست من الصدمة ، وراحت تحدق اليها بوجه تعلوه معالم الذهول ، وبعينين أفسحت فيهما النظرة الفتية الباسمة مكاناً لقلق الشيخوخة .

« لِمَ تنظرين إلي كذلك ؟ »

استفهمت الفتاة وقد فوجئت بهذا التصرف الغريب . ثم أردفت :

« ألستِ مسرورة ؟ »

فأجابتها أمها بهدوء ، وبصوت خفيض :

« كلا ، ليس كذلك . واذا كان مـــا ذكرتِ صحيحاً ، فاني جد سعيدة ! »

وخُيّل لجيما بأن لهجة أمها لم تكن لهجة سرور ، وانما كانت بعكس ذلك في الواقع . وطرفت الام باجفانها ، وهزت رأسها ، وعضت على شفتيها ثم راحت تفتل منديلها جيداً ، باصابعَ مرتعشة بعض الشيء . واخيراً وبفضول خجول متخوف ، ومستتر ، كما لو انها كانت خائفة من الجواب،سألت عن نوع العلاقات التي كانت قد تبادلتها جيما مع ذلك الشاب.

وقالت الفتاة في سرها : آه ! هذا هو السبب الذي بدت من أجله مشككة .

وأسرعت تؤكد لامها بأنه لم يكن بينها وبين بولو سوى الحديث ، ولذلك ينبغي ألا تقلق ، اذ لم تعرّض بشرفها .

إلا أن هذه التأكيدات لم تبدُ لتعطي نتائج كبيرة بالنسبة للأرملة التي راحت مرة أخرى، تتنهد وتحدق الى ابنتها بتكاسل ؛ وقد احتفظت بيديها في حجرها دون ان تتوقف عن فتل المنديل لحظة . في حين اكتسى وجهها الأبيض المتلىء طابعاً حزيناً . ولم تفلح جيما ، في حَيْرَتَها ، بأن تجد اسماً يُعبّر تماماً عن ذلك الشعور الذي كان يضايق أمها ، وقد استعرضت كل هذه الأسماء: الكآبة! الحزن! الخوف! الخجل! الشفقة...

كان طابعُها هذا يُذكّرُ أكثر من أي شيء آخر ، بذلك النوع من الكآبة المميتة ، التي قد يشعر بها المرء الذي يجد نفسه أمام مريضٍ لا يدرك بأن مرضه مستعصٍ ، ولا يمكن شفاؤه ، ولا يجد هو القلب الذي يساعده على اعلامه بوضعه الحقيقي .

لكن هذا الطابع لم يــــدم طويلاً ، إذ إن أمها ، في الحال تقريباً ، انتبهت الى نفسها ، وسألت بلهجة مرغمة بنوع ما ، مـــا اذا كانت هي سعيدة ، ولم تطرح أي سؤال آخر .

وسألتها ابنتها بدورها ، وقد كانت جد مندهشة ، عن سبب كلامها هذا . فأجابت الام بأنها لم تكن متأكدة كلياً من أن غايات هذا الشاب كانت جدية ، اذ خيل اليها بانه من النوع المستهتر ، وينبغي على جيما أن تظل حذرة من طريقة تصرفه . لكن الابنة أجابتها ببعض الحرارة بان استقامة بولو لا يمكن ان يُشك فيها. غير أنّ أمها لم تكن لتقتنع، وقد بدا ان عندها نيةً عمديةً لتعيب على هذا الزواج ، ولتهيء جيما لعملية إزالة الأمل الوهمي .

وطوال ذلك اليوم ، والأيام التي توالت ، وكلما كانت جيما تحاول ان تتكلم عن بولو ، لم تكن الام لتترك الفرصة دون ان تدس في عقلها نوعاً من الريبة ، او تغمغم ببعض العبارات المليئة بالشك والريبة .

ومهما يكن من أمر ، فلم تكن جيما لتعبأ بها ، وانما كانت تزداد تعلقاً وبشدة اكثر من السابق ، بآمالها . وفكرت بان أمها كانت مليئة بالحب الأموي ، وربما تكون قد تلقت خيبة ما ، او اي صدمة اخرى في شبابها، فخشيت عليها من الشيء عينه .

# ٥

لقد كان ذلك الشتاء قاسياً بالنسبة للمرأة وابنتها . فبغض النظر عن الاضطراب الذي وقع في علاقتهما ، بسبب البحث في قضية زواج جيما ، فقد كان عليهما ان تتحملا معاناة فقر اكبر من الماضي . اذ لم تفلحا في ذلك العام ، بتأجير اكثر من غرفة واحدة من الثلاث . وقد كان على جيما ان تقلع عن فكرة شراء بعض الملابس التي تحتاجها ، فيما راحت الام تقتصد في مصاريف المنزل ، بكل طريقة ممكنة .

والى جانب بواعث الكآبة هذه ، أضيف باعث آخر ايضاً ، وربما كان هذا أصعب وأسوأ من الكآبة ذاتها .

فقد وقع الساكن الوحيد عندهما ، في حب جيما ، وكان يدعى فيغنوزي، وهو استاذ للطبيعيات . رجل ضئيل الجسم نحيفه، وبحكم الشخصية ، خجول ، مليء بالعصبية غير المكبوتة جيداً ، ومتحذلق مستقيم شديد التدقيق .

لم يكن يعرف او يهتم بشيء خارج عمله ، هذا العمل الذي كان يتكلم

عنه دائماً، فيما تصحب كلامه ضحكات استهزاء فاترة، ونكات اختصاصية، وبعض الالتواءات والعلامات الاخرى الواضحة التي تدل الى سرور، واقتناع ذاتي .

وعلى الرغم من كونه شاباً فقد كان أصلع ، وأصفر اللون جافاً ، كرجل عجوز . ولكن خلف زجاجتي نظارته السميكتين كانت تتلألأ عيناه الصغيرتان ، بالثبات التعصبي ، والقوة والحزم .

ولم يكن يُعتبر بين اصدقائه في الجامعة ، وفي امكنة أخرى ، بين الناس الذين كانوا يعرفون فيه كل هذا ، بالرجل المرجو فحسب ، وإنما بالرجل المثقّف حالياً ؛ على ان جيما التي لم تكن تدرك فيه كل هذا ـ وحتى انها لو كانت تدركه لما كانت أعارته كبير اهتمام ـ راحت تنظر اليه على انه مخلوق مسكين لا يؤذي، وهو غير موزون ، وبالتالي سخيف.

إذ بالنسبة لامور الفراسة، كان يسيطر عليها استخفاف طبيعي تام، لم يكن مشتقاً من الجهل فقط ، ولكن من فكرة خاصة للقيم الانسانية، التي كانت تؤمن بها بحدة ، وبدون تبصر ، وبناء على هذه الفكرة الخاصة ، فقد كان فيغنوزي ، بوصفه استاذاً ورجلاً من أصل وضيع ، يقف في ادنى مرتبة من السلم الاجتماعي ، حيث كانت تضع في قمة هذا السلم ، أولئك الشبان الارستقراطيين الأغنياء والمتكاسلين ، الذين كانت تلتقي بهم خلال الصيف في « الفيلة » .

كان فيغنوزي قد وقع في حب جيما ، وكرجل وحيد عديم الخبرة ،

شرع يتودد اليها بطريقة سمجة ، وباعثة على السخرية ، مصحوبة بحيل بسيطة خبيثة ، ومروءات ، وملاطفات من النوع المتحذلق المختص بالأساتذة ، وقد كان ذلك يحدث عادة خلال فترات الطعام، أو كان يحدث وهذا من النادر ، في الأمسيات ، اذا ما أبت جيما ان تأوي الى فراشها باكراً ، وأذعنت، ابتغاء لأي شيء أفضل، أن تبقى في صحبة هذا الرجل الغليظ المتقدم للزواج منها .

كانت غرفة الطعام صغيرة الحجم ، طويلة وضيقة ، ذات سقف ينحدر بوجه التقريب ، من دعائم مطلية باللون الأبيض ، وكان ثمة طاولة كبيرة بحيث كانت تشغل كل المكان . وفي السابق كان يجلس الى هذه المائدة خمسة من النزلاء ، اثنان منهما لم يكونا ينزلان في البيت .

ولكن في ذلك الشتاء ، لم يكن يتناول احدٌ وجبات الطعام هناك ، ما عدا جيما وفيغنوزي ، ولا يمكننا ان نحسب والدة جيما ، على اعتبار انها لا تفتأ تنهض باستمرار كيما تقدم الطعام على المائدة ، او لتأخذ عنها الأطباق .

لم تكن جيما لتأكل كثيراً ، وكانت تقوم بذلك بشيء من الإباء ، وقلما كانت تفتح فمها لتتكلم، فتبقي عينيها معظم الوقت، مركزتين بشرود فوق المصباح الكهربائي الذي يتدلى فوق المائدة من السقف ـ وهو يتألف من حبل يلتجىء اليه الذباب ، ومن غطاء كالطبق فوق المصباح ، من الحديد المطلي بطلاء ثمين ، ويبدو كأنه حوض للغسيل ، ومن قطعة

نحاسية كبيرة تحمل الثقل ــ على ان فيغنوزي كان على عكسها ، فقد كان يغرق نفسه في فيضان من الأحاديث الحماسية المتشعبة ، فيروي بعضاً من شذرات القيل والقال في الجامعة ، متناولاً ابحاثه في المختبر ، وذلك وهو مقتنع كل الاقتناع الذاتي ، فيما يكون يغمز بعينيه ، ويفرك بيديه .

وحتى إنه كان يتمادى اكثر من ذلك ، فيروي بعض النكات المبتذلة جداً ، من ذلك النوع الذي يصبح شيئاً أصيلاً في غرف المحاضرات بالجامعة ، الى جانب الأشياء الاخرى مثل الطاولات والمحابر والألواح السوداء ، ويأخذ الأساتذة الآخرون يرددونها كل سنة ، كيما يحيوا بذلك تعليم المواضيع الأكثر صعوبة وجدية .

وأي انسان آخر ما عدا جيما لكان يقدس صفات فيغنوزي ، الذي كان رجلاً طيباً ، ويملك عقل اكثر الناس حذقاً . وكان عندما يعلم هو بأن مثل هذه المحادثة التافهة هي نتيجة لحيائه ولعدم خبرته الحياتية ، فكان ذلك يستميله الى الخوض في مواضيع هي اكثر شيوعاً .

على ان جيما لم تكن لترى فيه ، وهي مأخوذة كلياً كما تكون وهي غارقة في احلام العظمة والخُيَلاء ، سوى النزيل القليل الفطنة والمتعب ، الذي كانت مرغمة على احتماله لكي تكتسب منه بعض المال .

وكانت تبدو جد مغتاظة وساخطة وهي مضطرة الى الاصغاء اليه وهو يتكلم ــ وهذا ما كانت تشعره نحوه بحيث تبدل هذا الاحساس بعدم الاعجاب العام نحوه ، الى شعور بالكراهية الايجابية .

وهكذا غدت وجبـــات الطعام ، في الغرفة الصغيرة ذات الطاولة الكبيرة حيث تسير أمها ببطء وهدوء ناقلة الأطباق من غرفة الطعام الى المطبخ ، ومن المطبخ الى غرفة الطعام فيما يوليهـا فيغنوزي الجريء كل انتباهه ، غدت بالنسبة لجيما شيئاً مؤلماً .

لقد كانوا في منتصف فصل الشتاء الرديء جـــداً ، وعندما لم يكن هنـــاك مطر ، ولم تكن تُسمع خرخرة المزاريب السريعة والشرهة ، وصوت حفيف الأمطار غير المتناهي ، كانت تعصف في الزقاق الريح القائمة الآتية من الجبال التي تسقسق منها مياه الأمطار ، فتلتف على ذاتها وفي وحدات حلزونية عالية ، او تهبط فجأة في عواصف ثقيلة وكأنهـا اغطية مبتلة ، فتجعل قضبان النـــافذة تئز ، والأبواب تصرّ حتى في داخل المنزل .

وكانت جيما تصيخ السمع الى أصوات العاصفة والى قعقعة أمها الخفية وهي تغسل في المطبخ ، والى صوت فيغنوزي العصبي المتردد ، والذي كان يقاطع دائماً « بالحاذوقة » وبالضحكات الفاترة . وكانت جميع هذه الجلبات تبدو اليها جد نائية وغير واقعية ، كأصوات ذلك العالم البعيد ، الذي يفصلها عنه نطاق من الصمت المهيب الذي لا يُخترق .

وكانت هي نفسها تجلس في وسط هـذا الصمت وكأنها خيال يقف عند المذبح ، خيال لا يعي الصلوات ، ولا وقع الاقـدام او الهمسات او النظرات العميقة والبعيدة نحو السماء .

لقد كانت السماء بالنسبة اليها هي تلك « الفيلة » التي تمضي اليها في الصيف ، بكل ما فيها من وسائل الراحة ، وحفلات الفرح والبهجة . وليظل فيغنوزي مستمراً في ثرثرته ، ولتبقَ الريح تعصف والأمطار تدمدم ، ولتظل الأطباق والصواني تسقط من يد أمها في حوض الغسيل؛ فروحها ما تزال تستطيع أن تجد ملجأً لها في عالم أحلامها ، دون أن تخلف هنا سوى مظهرها الخارجي، وجودها الجسدي الفارغ ، الأخرس، الذي لا حراك فيه .

وهكذا ، وعلى هذا المنوال المكرب انقضى فصل الشتاء . لكن جيما في وقت من أوقات شهر آذار كانت قد تسلمت رسالة من بولو . فقد حدث أنّ الشاب فيما كان يتتبع دراساته في روما ، عادت به الذاكرة الى جيما ، وتذكر كم كانَ معجباً بها ، وبما أنّ الرغبة قد دفعت به لقرع بابها في تلك الليلة ، فقد وجد نفسه الآن عاجزاً ، وهو مدفوع بذكرى تلك الرغبة ، أمام الاغراء في عملية تجديد علاقتهما القديمة . وربما أنه قد فعل هذا ، لأمله الذي لا يعترف به في أنْ يعدّها للقائهما في الصيف القادم .

وكانت الرسالة تبدأ ببعض الأعذار ، وتستمر لتعيد الى الذاكرة النزهات التي قاما بها معاً ، وفي النهاية كانت ثمة عبارات لا يمكن ان تؤوّل خطأ ، حول شعوره بالحنين وبالرغبة نحوها .

وكان كبيراً اقتناع جيما التي أجابته في الحال برسالة أطول من رسالته

مرتين ؛ وعاد الشاب ليكتب اليهــا رسالة أخرى ، وهكذا نشأت بينهما طريقة المراسلة التي كانا فيها - وربما ذلك لبعد المسافة بينهما - قد تركا جانباً تحفظهما الذي كانا يوليانه كبير اهتمامهما في نزهاتهما ، وشرعا يتكلمان بحرية اكبر ، وثقة أعظم .

•

وقد كان سرور جيما كبيراً للغاية ، بحيث راحت تتخايل نفسها وهي واقعة في الحب ، فاحتفظت بالرسائل بين أثوابها التي تشعر نحوها بالأكثر صميمية ، في قعر الدرج . وكانت عندما تتسلمها تروح تقبلها ، إذ كانت رسائل بولو مليئة بالمشاعر ، فإلى جــانب ضجره ، ووحدته ، ودراساته الجامعية ، كان يشرع في حب جيما فعلاً .

•

على أنّ جيما في رسائلها لم تكن تتكلم إلاّ عن نفسها وعن حياتهــا الخاصة . وكانت تشرح له حدودية البلدة الريفية ومـا تحتوي عليه من الكآبة والضجر ، وقد عبّـرت له عن شوقها في تغيير حياتها ، ومحيطها . وفتحت قلبها ، ووثقت به بشيء من التبذل المضطرب المليء بالصراحة المصنوعة ، والنباهة الاضطرارية . وقد ضمنت هذه الرسائل شذرات من كل نوع - بعض العبارات التي كانت قد سمعتها في السينما ، أو قرأتها في الروايات ، بعض الكسرات من محادثة جرت في حفلة ما ، وانطباعات كانت قد انتخبتها من الكتب الدراسية، الكتب الوحيدة فقط التي حدث لها وقرأتها بجدية ، الى جانب أشياء وعبارات تبلغ المئة تقريباً، من النوع المستعمل ، الذي لم يكن من بدعها ، والذي لم تكن تفكر به أو تشعره ،

وإنما كان يفتنها لدرجة البكاء . وقد كانت رسائلها ، من أولها الى آخرها، رسائل مرائية ، إلاّ أنها كانت مكتوبة بإسلوب فيه تدفق ، وفيه اتقان خبيث يعود طبيعياً الى أحد أنواع الزيف المعززة .

وكانت الرسائل هذه تبدو لبولو ، الذي كان أقل معرفة منها ، جميلة للغاية . وقد يكون وجد في بعض الأحيان خطأ ما ، إذا ما كان هناك شيء ما منقحاً جيداً ، وشاء هو أن يكون أدبياً للغاية . أما بالنسبة لجيما، فقد كانت تشعر بالراحة ، بعد أن تملأ ثماني أو عشر صفحات بعبارات الثقة الوهمية التقليدية ، وتحسّ كما لو أنها قد أنزلت عنها حملاً من العذاب السري غير المطاق . وهذا التصور كان له التأثير الكبير حتى على مظهرها الخارجي ، فبدت أقـــل غروراً وتعجرفاً . وقد ظهرت الثقة الذاتية لتحتل فيها مكان جمودها السابق الممسوس .

وقد لاحظ عدد كبير من أهالي البلدة بأنّ جيما كانت تزداد جمالاً في نموها . ولاحظ ذلك ، بشكل خاص ، فيغنوزي الذي انتهى الى فقدان عقله تماماً ، أمام هيامه بها . وبدا في احـدى الأمسيات وهو جالس الى المائدة أكثر غرابة وعصبية من العادة. فكان يضحك دونما سبب إطلاقاً، ويفرك يديه ببعضهما، ويتمتم كما لو أنه كان وحيداً ، وبين الحين والآخر كان يركز عينيه الحادتين واللامعتين بجرأة فوق وجه جيما .

وحالما انتهت وجبة العشاء ، انحنى الى الأمام ، نحو المرأة الأرملة ،

وفيما كان يمسكها بذراعها بطريقة عنيفة ، أسرّ اليها بلهجة فيها بعض الفظاظة ، بأنه ينبغي ان يتكلم اليها على انفراد . ولكن صوته لم يكن هادئاً بحيث لا تستطع جيا سماعه .

ودفعت بكرسيها الى الوراء وهي جد غضبى ، يكسو وجهها تعبير العجرفة والاحتقار ، وهبت واقفة وتركت الغرفة . ودون أن يدري فيغنوزي شيئاً ، نسب مغادرتها هذه الى شعور الفتـاة المحافظة بالحياء . وعوضاً عن أن يحس بالكدر من هـــذا التصرف ، فقد ازداد شعوره بالتملـــق .

« ما القضية الآن ؟ »

بدأت والدة جيا حالما توارت ابنتها .

« سنيورا ، سنيورا »

راح فغنوزي يردد فيما كان يستدير في كرسيه ، ويداه الاثنتان بين فخذيه . واستمر : -

« توجد بعض الأشياء يجد المرء صعوبة كبيرة بالكلام عنها ... »

« أجل ، بالفعل » .

قالت الأرملة التي كانت قد أدركت القضية تقريباً ، ثم أضافت بهدوء وهي تهز كرة الصوف بيدها ، وتنكب بدون أي عنـــاء إضافي على « صنانير » الحياكة .

« ربما أنت غير راضٍ عن معاملتنا لك هنا ؟ »

واحتج فيغنوزي كما لو أنّ الخوف قد سيطر عليه :

« أرجوكِ ! أرجوكِ ، إني جد مستريح هنا ... ولم يسبق لي قط وتناولت طعاماً رائعاً كهذا ... أرجوكِ ... أرجوكِ ... »

« أو أنك لا تحب الغرفة ؟ ... أتود أن تغيرها ؟ »

« كلا ، كلا ، كلا ، ... » هتف فيغنوزي وهو حانق ونافد الصبر، ومذعور ، وقد رفع يديه إلى رأسه ثم أردف « كلا ... كلا ... »

ومضت الأرملة تحاول أن تمتّع نفسها :

« حسناً إذن ، لا شك أنك ستخبرني بأنك على وشك المغادرة . . . فسأكون أنا وجيما آسفتين للغاية ... فقد اعتدنا عليك ... »

فقاطعها فيغنوزي وهو يرجوها ويكاد يخرّ على وجهه :

« كلا ، كلا ، كلا أيتها السنيورا . . . إنّ الشيء الذي سأخبرك بـه سيكون أمراً مفرحاً ... بالنسبة إليّ ... بأيّ طريقة ... »

وقالت المرأة دون أن ترفع عينيها عن عملها :

« إني سعيدة لسماع هـــذا ، إذن . . . هيا الآن ، حضّر نفسك واخبرني . . . »

« آه ! إذا كانت المسألة تتعلق بقضية تحضير نفسي فقط ! »

بدأ يشرح لها بعد أن صدرت عنه ضحكة عصبية . وقـــد بدا في تردده ، وفي عجزه عن الجلوس ساكناً ، كما لو أنه يرتجف من الحمّـى. ثم فجأة حزم أمره وهمس وهو يمسك ذراع الأرملة بأصابعه العظمية القاسية:

«ماذا ستقولين؟ ماذا ستقولين لو طلبتُ منك يد ابنتكِ؟ سترفضين، أليس كذلك ؟ وهل ستضحكين بوجهي ؟ »

وتوقفت الأرملة عن العمل ، ورفعت رأسها الى الوراء قليلاً ، ثم حدقت إلى رأس الشاب المنكّس ، القلق . وأجابت بهدوء :

« ينبغي ألاّ أقول أنا شيئاً، سيكون عليك ان تسمع ما تقوله ابنتي».

لقد ملأته المسافة بين « ينبغي ألاّ أقول أنا » و « سيكون عليك » بشيء من البهجة ، وراح يشدد :

« وهكذا ، ليس لديكِ أيّ مانع ضدّ طلبي، وأنت حاضرة لتتكلمي به مع ابنتكِ ... ؟ »

« أَجل ، ولِمَ لا ؟ »

« الآن ، في الحال ؟ »

« أجل ، الآن في الحال »

وهبّ فيغنوزي واقفاً وهو مضطرب لكنه مسرور ، وسار الى

الجهة اليمنى حول المائدة يسيطر عليه الأمل فيما يفرك يديه . ثم قال :

« سنيورا ، سنيورا ، ربما أنكِ لن تصدقيني ، على أنني في حالة من الحَيْره تجعلني أشعر بالحمّى . فأنْ يأخذ المرء له زوجة ، هذا أمر لا يحدث كل يوم أليس كذلك ؟ »

وصدرت عنه ضحكةٌ بسيطة حمقاء وعصبية وهو ينطق بهذه الكلمات. وأكمل :

« وأنا واثق من أني أقوم بخطوة جدية للغاية . . . ولم يسبق لي قط وفكرت بتأسيس عائلة ... وقد حدث كل هذا بصورة جد فجائية . . . هل في وسعكِ ان تري فيّ زوجاً ، بقدر ما يمكنكِ أن تري فيّ رباً لعائلة ؟ »

وضحكَ من جديد ثم وقف ساكناً يحدق إلى الأرملة :

« هل في وسعكِ أن تري فيّ ذلك؟ إنّ مجرد التفكير بهذا يضحكني. ولكن ماذا ستقول ابنتك ؟ ماذا ستقول ؟ »

« لا تقلق ، فابنتي إما ستقول أجل وإما كلا ... ! »

قالت الأرملة وهي تحدق اليه وقد بدا عليها أنها غارقة في التفكير العميق .

وأقدم الشاب على قفزة بسيطة في الهواء ، مصحوبة بانفجار ضحكة تشنجية غريبة ، ثم قال :

« أجل ، طبعاً ــ إما أجل ، وإما كلا ... كلمتان صغيرتان اثنتان . أجل او كلا ... ذلك جد سهل بالنسبة اليها : أجل أو كلا ... ولكن ماذا لو كانت ستقول « يوه ؟ »

لكن هذه النكتة على حساب المسكين التعيس ، لم تنجح في ان تضفي أيّ بسمة على وجه السنيورا فوريزي ، التي ظلت جدية ومرتبكة ، وأجابته :

« ولكن في الوقت ذاته ، أيها الاستاذ ، انا لا أعرف شيئاً عنك ، ولا عن عائلتك ، أو عن وضعك ، والآن تعالَ واجلس بقربي هنا، واخبرني عن بعض الأشياء ... »

واندفع فيغنوزي إلى الأمام وهو يقول :

« سامحيني ، سامحيني ايتها العزيزة السنيورا فوريزي ، أرجوك سامحيني » .

وفيما كان يجلس بمواجهتها شرع يحاول أن يقدم ما طُلب اليه تقديمه من معلومات ، وهكذا حدث أن علمت الأرملة أنّ فيغنوزي اليتيم ، والابن الوحيد، كانت أحواله طيبة ومريحة، هذا إن لم يكن غنياً بالضبط، لأنه يملك بعض المنازل في روما ، بحيث كانت تدرّ عليه دخلاً محترماً .

وبالنظر إلى ناحية اختصاصه ، فقد خاض فيغنوزي في قصة معقدة وطويلة للغاية ، حول بعض المكايد العدائية في الجامعة ، والتي ذكر أنه

سينتهي بالتفوق عليها جميعاً في وقت قريب؛ وحول بعض عبارات الثناء على نشره لكتابٍ قريباً ، كان قد سلخ سنواتٍ من عمره يعمل فيه، وقد يُحدِث نشره صدى كبيراً .

وفي الواقع ، كان قد خاض في غمار حذلقته العلمية ، كيما يمضي إلى غرفته ويجلب حزمة من «البروفات المطبعية» الملأى بالأرقام، والنظريات والأشكال العلمية . وقد كان مُقدَّراً لكتابه ، كما زعم ، بدون أيّ تواضع ولكن بدون أيّ خُيَلاء كذلك ، وبشيء من البساطة واليقين للحقيقة البديهية ، بأن يحدث ثورة في مجال المنافسة الصعبة ، والكبيرة ، القائمة الآن في حقل الطبيعيات الحديثة ؛ وبأن يؤكد له حصولَه ، ليس على عدد من اوسمة الشرف فحسب ، وإنما على مقعد استاذ في جامعة روما .

جميع هذه التلميحات قام بها فيغنوزي لتواكب تكلفه العصبي الخشن الذي لم يكن ليستطيع اخفاءه مطلقاً ، حتى عندما يكون في مثل وضعه الحالي ، الذي يستلزم فيه صوتاً هادئاً جدياً ، من ذلك النسق الذي يوحي بالثقة .

وبالرغم من كل هذا ، فقد ظلت هي عاجزة تماماً عن فهم مربكات جامعة عالم الطبيعة هذا ، وحتى أقل من ذلك ، فلتقديرها لقيمة تلك « البروفات المطبعية » التي كان يهزها فيغنوزي بوجهها ، راحت تتكهن بأنّ وراء جميع هذه الغرابات، وعبارات الزخرفة العصبية، كانت تكمن

حقائق ثابتة فعلية قد تكون اكثر أهمية من أيّ شيء يستطيع أن يظهره حياءُ الشاب المبالغ فيه .

وهكذا فيما كان فيغنوزي يجاهد ويعرق وييأس في سبيل ان يقنعها بقيمته الشخصية ، كانت الأرملة قد اقتنعت تماماً تقريباً ، بأنّ في مثل هذه الحالة ، كانت هناك الكمية التي هي اكثر بكثير مما كانت تجرؤ أن تأمل بوجودها .

ومهما يكن من أمر فقد كانت تكمن هناك الحقيقة في أنّ فيغنوزي بغضّ النظر عن كونه في منتصف العمر ، ومظهره ليس فتياً كما ينبغي، لم يكن يشكل جزءاً من العالم الوهمي السامي الذي كانت تشتاق اليه هي وابنتها طوال حياتها .

وهذا لم يكن شيئاً يبعث على الراحة ، بالاضافة إلى أنه أمر جدي للغاية . وأمام هذا الوضع فقد أحسّت بأنّ كل شعورها الطيب، كامرأة مسنة ، وذات خبرة ، قد تلاشى ... وقد خُيّل اليها بانّ هـــذا الأمر شيء أبسط قليلاً من ألاّ يغلب .

ومع ذلك ، وبالرغم من هذه الحماقة الطامحة ، المتأصلة فيها، فقد كانت الأرملة فطنة لدرجة كافية لتدرك بأنّ اقتراح فيغنوزي ، في وضعها الحاضر ، لم يكن ليستهان به مطلقاً .

إذ حتى الآن كل المتقدمين لطلب يد جيا كانوا بضعة رجال في متوسط

العمر ، من التجار وأصحاب الحوانيت في المدينة، كانوا قد اعتقدوا بأنّ من الحكمة أن يعهدوا بالبيت إلى فتاة مسكينة ، ولكن ذات تربية ممتازة وهي القــادرة ، بثمن زهيد ومطـاليب قليلة أن ترفع بهم في نظر اترابهم المدنيين ، الشحيح .

وحتى الرجل الأعمى في وسعه أن يدرك ، بالمقــارنة بينهم وبين فيغنوزي ، بأنّ هذا الأخير، بالرغم من جميع غراباته ، ومظهره الشخصي الذي يبدو فيه في متوسط العمر ، كان افضل منهم بكثير .

وبناء على ذلك أجابته السنيورا فوريزي بكلمات تملصية وحريصة، بحيث لم تكن بمثابة وعد بأيّ شيء، ولا بمثابة رفض لأيّ شيء في الوقت عينه . وقد خلصت إلى أن نصحت فيغنوزي بالذهاب الى الفراش ، وفي الوقت ذاته ستتكلم هي إلى ابنتها ، وسيتسلم جواباً ، من أيّ نوع كان ، في اليوم التالي .

وبعد عدة توسلات ، غادر فيغنوزي إلى غرفته ، بينما ظلت الأرملة جالسة بعض الوقت إلى رأس المائدة المهجورة ، وهي غارقة في التأمل ، وقد ألقت بيديها فوق حجرها ، وركزت عينيهــا فوق نور المصباح الكهربائي . ومضت تفكر بحياتهـــا الخاصة التي انتهت الآن ، وبحياة ابنتها التي بالكاد بدأت .

على انها لم تكن آسفة على أخطائها الخاصة ، التي بدأت الآن تظهر

لها كلياً في نور هام وجديد . ولم تكن تحضّر كذلك ، لتحاول أن تمنع ابنتها من ارتكاب أخطاء أخرى مماثلة، وبالتالي كانت ترثى، بكآبة، لخيبة آمالها المتكبرة ، الحمقاء . إذ لم يسبق لها قط وندمت على أخطائها ، وفي الواقع كانت دائماً متعلقة بها ، كما لو أنها كانت السبب الأول والوحيد ، الذي كان لديها كيما تستمر في حياتها .

وبما أنها ذات مرة كانت قد شعرت بالندم الكبير، لأنها فقدت امكانية ارتكاب مثل تلك الأخطاء ، فهي الآن تشعر بأنّ مرارتها الكبرى تكمن في اكتشافها ، بأن ربما ابنتها ايضاً ستضطر إلى الاقلاع عن ارتكابها .

هذا الاكتشاف ملأها بشعور عميق من الكآبة والوهن ، راح يؤلمها ويذهلها . كان الوضع وكأن قد واجهتها عبارةٌ هائلة من الاجحاف ، غير الممكن فهمها، كتلك التي تنقض أعظم الطاقات صعوبة في التجربة، وتجعل الانسان يعتقد أنه قد عاش وجاهد عبثاً .

وكما كان الآخرون يتوسلون من أجـــل نسلهم ، كيما يحرزَ أوسمة شرف عسكرية ، أو سياسية ، بذات الطريقة كانت الأرملة تعيش دائماً، وتحاول أن تعد نفسها وتقدم التضحيات ، وهي عاقدة أملها على رؤية ابنتها تتحول الى سيدة مجتمع ، كثيرة التنويع في معاشرتها ، ومتكبرة ، وفاسقة وأنانية للغاية .

والفكرة بأنّ أملها هـــذا ، لن يكتب له أن يتحقق، وبأنّ جيا في

النهاية ستضطر لأن تذعن للزواج من فيغنوزي ، أو من أيّ شخص آخر من هذا النوع ، ملأتها بالذعر . وقد شعرت تقريباً ، بالرغبة في الاعتذار من ابنتها ، التي قد ربّتها على وعودٍ ونماذجَ مختلفة كل الاختلاف .

وللمرة الاولى في حياتها فكرت بالموت بمرارة غريبة ؛ فكرت به كما تفكر به الأرواح العمياء ، الهالكة ، فترى فيه آخر وأحلك مصائبها المستوجبة لذلك .

وفي النهـــاية هبت واقفة ، وأطفأتِ النور ومضت لترى جيما في غرفتها . كانت الفتاة في فراشها، فاقتربت الام وجلست عند قائمة السرير، وراحت تعرض عليها طلب فيغنوزي .

وظلت الفتاة تصغي إلى أمها ، وهي تتفحص أظافر أصابعها ، وقد غمر وجهها تعبير متقزز ، بارد ، دون ان تبدي أي حراك ، أو تنبس ببنت شفة . وفي النهاية قالت مؤكدة :

« إنه مجنون . وبـــدلاً من أن أتزوجه ، فمن الأفضل أن أصبح راهبـة » .

وحدقت اليها امها قليلاً دون أن تفتح فمها ؛ فقد كانت متكدرة . إذ لم تستطع مشاركة جيما في ازدرائها، وقد خيّل اليها ، في الوقت ذاته ، بأنه يجب ألاّ يُرفضَ طلب فيغنوزي رفضاً باتاً . وهنـا راحت تحاول أن تشرح لإبنتها بأنّ فيغنوزي رجل ثري .

فهزت جيا كتفيها بازدراء ، وقالت :

« ياله من مخلوق سمج واحمق . لن أتزوجه حتى ولو كان مطموراً بالذهب » .

وكان صوتها هادئاً ، لا أثر فيه للضغينة ، وكان واضحاً بالنسبة لجيا، بأن الموضوع لا يحتمل امكانية الشك، بحيث جاء قرارها دون ان تخوض في بحث الموضوع حتى. وقد كان هدوؤها هذا ادعى إلى الارتباك والحيرة بالنسبة للأم من العصيان العنيف .

وبحذر راحت تحـــاول الاقتراح بأنّ جيا ينبغي أن تظهر بعض الاهتمام لفيغنوزي . وبالاضافة إلى كل شيء ، فقد كان هو الشخص الوحيد المتقدم منها بالزواج ، في تلك الفترة .

على أنّ جيا أجابت ، وهي تبتسم بازدراء :

« مهما يأتِ ويمضِ المتقدمون بالزواج مني ، فإن عنـــدي شخصاً أفضل ، افضل بكثير » .

وبحركة أبية ، أخذت أربع او خمس رسائل من رسائل بولو ، من داخل درج خزانة الليل ، قرب السرير ، ورمت بها امام أمها. على أنّ هذه الأخيرة التي لم تكن تدري شيئاً عن المراسلة القائمة بين ابنتها والشاب ، فقد تحولت إلى صخر جـــامد ، ولم تجرؤ على لمس الرسائل ، وبالكاد استطاعت أن تحتمل النظر اليها .

وأخيراً ، وبقدرة كانت جديدة وغريبة فيها ، لأنهـــا كانت على العموم ، خاضعة لمشيئة ابنتها كلياً تقريباً ، راحت تصرّ من جديد ، على انّ فيغنوزي ينبغي ألاّ يتسلم جواباً بالرفض . فماذا يضير جيما إذا ما قالت بأنها تود ان تفكر بالموضوع ؟ لا شيء . وفي ذات الوقت ، يكون فيغنوزي ما يزال قريب المنـــال عندها ، مثل طبق يُحفظ فيه الطبخ ساخنـاً .

« تصرفي كما تشائين تماماً » .

هذا كل ما قالته جيما ، وقد كانت جد متشوقة كيما تظهر عدم مبالاة تامة نحو المتقدم بالزواج منها ، والآن كانت قـــد التقطت الرسائل مرة أخرى ، وراحت تعيد قراءتها هنا وهناك ، بتركيز تظاهري أخرق .

ومكثت الأرملة بعض الوقت ، محدقة إلى ابنتها فيما كانت هذه تقرأ رسائلهـــا ، ثم نهضت وهي تتنهد ، وخرجت من الغرفة متمنية لجيما ليلة سعيدة .

وفي اليوم التالي جاء فيغنوزي يسأل عن الجواب الذي وعد به ، وهو يرتعش . وبناء على اتفاقها مع جيما ، ظلت الأرملة تشرح المسألة بعبارات عامة . فقالت بأنّ ابنتها أرادت ان تتمعن بالموضوع ، ومع أنها قدمت له شكرهـــا ، فقد رجته ان ينتظر في الوقت الحاضر . وبحرارة وافق فيغنوزي الذي كان يخشى ان يتلقى الجواب بالرفض ، إذ لتتمعنا

بالموضوع على راحتها ، لتتمعنا به ما طاب لهما التمعن . فقد أدرك تماماً بأنّ في مثل هذه القضية الحساسة ، لا يمكن ان يتجاوز التبصر والتأمل حديهما ، اطلاقاً .

ولكي تتحاشى التدفقات التي قد تثير في جيا صراحة مخيفة ، راحت الارملة تنصحه بألاّ يتكلم إلى ابنتهـــا حول الموضوع ، وبالاّ يلمح اليه حتى . ليدع الكلام عنه إلى حينه ، فالامور يجب ألاّ تعجّـل . وفي يوم من الأيام ، وفيما تبدأ جيا تألف فكرة الزواج منه ، فسيحظى بالجواب الذي يرغب . وأثنى فيغنوزي على هذه النصيحة ، واستحسنها كذلك ، بحماسه الضوضائي المعتاد .

وفي الواقع كان يدّخر حماسه لمثل هذا الموضوع ، إذ كان يتصرف مع جيا بتحفظ موقر يحدّه البرود . ولكن فيما بعد ، لم يعد حـــالما تخرج الفتاة، يوفر أي جهد في مدح نفسه، وفي التماس المساعدة من الأرملة. وأما من ناحيتها ، فقد كانت تتملقه قليلاً، وتخدعه قليلاً ، بطريقة قد تبقيه ـ كما قالت لابنتها تماماً ـ دائماً في حالة تأهب ، ودائماً قريب المنال ، فوق النار الخفيفة للملل الظاهر والآمال المكبوتة .

وهكذا ، ببعض المناورات والمراوغات ، انقضى فصل الشتـاء في ذلك المنزل القائم في الزقاق .

## ٦

وبعد ان مضى شهر آذار ، والجو ما يزال ممطراً فوق تلك القمم ؛ وبعد مرور شهر نيسان المليء بالمطر ، حلّ أخيراً شهر أيار بجوه اللذيذ .

والريح التي لم تكن لتكفّ في أي فصل من الفصول ، عن الهبوب حول جدران البلدة ، كانت تزداد دفئاً فاقدة حدتها المثلجة ، القاطعة ، وقد غدت وافرة وكثيرة التقلب ، تتعقب السُحب الخفيفة ، والعظيمة البياض عبر السماء ، وتتلاعب بستائر النوافذ المشرّعة ؛ ولم يعد ثمة من عويل أو نحيب ، وإنما كانت تُسمع أصواتُ صفير خفيضة ، وطويلة ناعسة ، كما لو أنها تعبى ، كما لو أنّ استرخاء الفصل الجديد قد سيطر عليها .

هذه الفترة كانت من أفضل الفترات في حياة جيا . فكل يوم ، في الأصباح وحوالي الظهيرة ، وفي الأصائل ، في الساعة التي يتنزه فيها الناس ، مشياً على الأقدام ؛ كانت هي تمضي إلى الطرف النهائي للبلدة ،

فتقف على مرتفع تستطيع منه العين ان تغمر كل السهل الواسع ، إلى الحد الذي تحيط فيه الجبال الزرقاء حدود الافق .

وكانت تقف هناك تحدق إلى الصقع الفسيح، وبخاصة إلى تلك البقعة حيث تعرف أن « فيلة » اصدقائها ترقد هنـــاك . وفي البعيد في الأسفل حيث طية الأرض العالية ، كانت ترقد أجمة أشجـــار البلوط ، حيث كانت قد قابلت بولو . وكانت أشجار الزيتون الداكنة المبرعمة بانتظام ، فوق المنحدرات المستديرة ، تخفي الممرات التي سبق لهما ومشيا فيها معاً، مرات كثيرة .

وكانت تلقي بيديها فوق السور ، وكما لو أنّ الأصدقاء الذين يقفون إلى جانبها لم يكونوا ينتبهون اليها ، كانت تتظاهر بأنها تتفحص بعض الأشياء في ذلك الصقع ـ دخان القطار الأبيض ، الذي كان يسير خلف صفوف أشجار الدردار [١] ، وأشكال السحب المتغيرة ، وشاحنة تسير مقرقعة وهي تصعد في الطريق التي تمتد حول جدار البلدة .

ولكن بطريقة لا تقاوم ، كانت عيناها تبحثان عن المكان الذي ترقد فيه « الفيلة » وتروح تفكر : في غضون شهر سيتقرر نمط حياتي . وفي الواقع ، بعد فترة التكاسل الطويلة هذه ، سأبدأ أحيا ، في النهاية .

---

(١) Elm الدردار ضرب من الشجر العظيم ، له زهر اصفر ، وورق شائك، وثمر كقرون الدفـــلى .

وخيّل اليها أن الحظ الطيب، مثله مثل السماء ونور الشمس والسهل المزروع الجميل ، كان يضحك عليها ويلاطفها . وداهمها شعور ، كما لو أنه كان شعوراً بعسف لحق بها ، شعور هو في الوقت ذاته سار ومشكوك فيه .

وخلال ذلك الوقت وللمرة الاولى بدأت تستمتع برؤية عدة أشياء ، كان عقلها المغتر ، المتبرم ، قد منعها إلى الآن ، ليس من تقديرها فقط ، وإنما من رؤيتها حتى . وهذه الأشياء كانت جمالات الطبيعة ، والمباهج النهمة ، أو الشرهة لوجود كل يوم ، والتي فيما سبق لم تكن معروفة عندها . وبتأثير طراوة أمل الأيام الأكثر سعادة ، أفسحت الخشونة الحمقاء والسمجة ، والتي هي جزء ضروري من الطموح ، مجالاً لحالة عقلية هي أكثر انفتاحاً للإنطباعات اللذيذة والمفرحة . وفي الحقيقة ، كانت جيما تعيش للمرة الاولى ، حياة طبيعية خالية من الاشتياقات العاجزة ، والمراوغات الاحصائية ، والأكاذيب.

ولكنها في أحد الأيام ، حوالي آخر الشهر ، عندما عادت الى البيت، بعدما قامت بنزهتها المسائية المعتادة ، وجدت أمها تسير تائهة من غرفة إلى أخرى ، وهي في حالة هياج وحيْرة . وكان يبرز من جيب مئزرها مغلف مفتوح ، وورقة رسالة ، وحالما لمحت ابنتها أشارت اليها كي تتبعها .

ودلفتا إلى داخل غرفة جيا ، حيث أخذت الأرملة يديّ ابنتها بين يديها ، بعد ان تركتها تأخذ مجلسها فوق السرير ، وراحت تحدق اليها بهدوء لفترة طويلة ، يعلو وجهها تعبير من الحنانِ المحزن .

وأخيراً قالت لها :

« يا عزيزتي جيا ، عليكِ أن تستعدي لسماع بعض الأخبار السيئة » .

وبتأثير هذه الكلمات شرع قلب الفتاة يخفق بسرعة أكثر ، فقد فكرت ببولو ، وأحست بقواها تتلاشى ، فيما كان لون وجهها أبيض .

وسألت في الحال :

« ماذا هناك ؟ »

وذكرت أمها اسم مالك « الفيلة » ، وبدأت تقول :

« لقد كتب إليّ وهو يقول بانه جِدّ متأسف لأنه غير قادر على دعوتكِ إلى هناك ، هذا الصيف ... »

وأضافت بسرعة :

« وطبعاً ، أنتِ وآنّا ولويزا ستظلّين تتقابلن . . . ولكن ليس في « الفيلة » .

ولم تستطع جيا إلاّ أن تصرخ :

« ماذا ؟ ليس ذلك الاجراء لهذه السنة فقط ، وإنما للسنوات القادمة كذلك ؟ »

« أجل ، وهو يقول انه سيكون من الافضل لكل شخصٍ ، ألاّ تمضي إلى هناك بعد الآن ... » .

وتوقعت الأرملة أن ترى ابنتها تضعف ، وتنفجر في موجة من الدموع تحت ثقل هذه الضربة ، على انها كانت تفضل أن ترى حزناً مستسلماً رثائياً ، لأنه يناسب خططها بطريقة أفضل .

لكن خُلُقَ جيما لم يكن خلقاً ضعيفاً، فحدة عاطفتها حجزت الدمع في مقلتيها ، ودفعتها نحو الشعور بالاحتقار والغضب . ولم تبق طويلاً متجمدة بتأثير الدهشة ، ففي الحال انتزعت نفسها من بين يدي أمها الشفوقتين ، وهبت واقفة .

وصرخت غاضبة :

« إني أعرف ما هو السبب في كل ذلك. انه بولو... اخبريني الحقيقة، أبسبب بولو لا يودون أن يروني في « الفيلة » بعد الآن ؟ ... »

وحاولت أمها أن تتكلم ملطفة الجو :

« أجل يا جيما ، لا شك أنّ ذلك بسببه . . . أما الآن ، فما الفائدة في أن تغضبي ؟ ذلك لا يجدي ... »

على أنّ ابنتها الغضبى ، لم تكن لتتركها تكمل :

« لا يعتبرني أهلاً لأن أكون جزءاً من عائلته . . . لأن أصبح زوجة لابنـه . . . حسناً ، حسناً ، إنّ مصيبتي هي في أني من عـائلة فوريزي ، وفوق المصيبة لست ميسورة الحال كذلك . . . لأني لو كنت ابنة أحد رجال الأعمال الكبار من ميلانو [١] ، لكانت جميع هذه الصعوبات التي تغلف قضية مولدي ، تضمحل بطريقة شبه سحرية . . . على اني لست غنية ، ولا ارستقراطية، هذه هي مشكلتي، هذه هي جريمتي ... »

وفيما كانت تتكلم راحت تطلق العنان لخُيَلائها الخائبة ، ولعزتهـا المجروحة، وتروح وتجيء في الغرفة، بخطوات ثائرة من قدميها النحيفتين والطويلتين . وكانت تتوقف بين الحين والآخر ، مكوّرة قبضتيها ، وضاربة عقبيها بالأرض .

وراحت أمها ترمقها بسكون من حيث تجلس فوق السرير ، بنظرة غريبة ، تحتوي على التفريج والشفقة . وأملت منها أن تزيل غضبهـــا هذا في صرخات باطلة ، وتعبيرات عاجزة .

إلاّ أنها بدون أيّ اعتبارات حاولت أن تقول :

« ماذا في وسعكِ أن تفعلي يا جيا ؟ من الطبيعي الآن ...

أجابتها الابنة وهي تقف بمواجهتها :

---

(١) Milan مدينة في ايطاليا ، عدد سكانهـا مليون وثلاثماية نسمة ، ومعروفة بقبة كاتدرائيتها . وفيها تُصهر المعادن ، وتصنع الآلات والسيارات وهي مدينة تجارية كبرى .

« لا شيء مطلقاً . إذ إني لا أهتم بهم أو « بفيلتهم » ، أو بضيوفهم أدنى اهتمام . وأما بالنسبة لبولو ، فإني أحبه . . . ليفعلوا ما شاءوا ان يفعلوا ، ولكن لا يلمسوا بولو . . . فإن كلاً منا بالغ السن القانونية ، وفي وسعنا أن نتزوج بالرغم منهم ، ومن كل إنسان آخر يكنّ لنا كرهاً . . . آه ... أجل ، بالفعل ، ويمكنني ان أُقسم لكِ بأنّ ... »

وسألتها أمها :

« ولكن ماذا يمكنكِ أن تفعلي ، يا عزيزتي جيا ، المسكينة ؟ »

وصرخت جيا الآن :

« ماذا يمكنني أن أفعل ؟ أستطيع أن أقوم بأسهل عمل في العالم . أكتب إلى بولو ليأتي إلى هنا في الحال ، واطلعه على حالة الامور . . . وسيدرك بأني على حق. وبعد اسبوعين على الاكثر ، سنكون متزوجين ».

وبدت أمها متخوفة فجأة . إذ إنّ والد الشاب كان قد كتب ، إلى جانب أمور أخرى ، تنويهاً واضحاً بمشيئة ابنه لأن يتخذ من جيا زوجة له . وفي الواقع أوضح لها بأنه قد علم بالعلاقة بين بولو وجيا فقط ، عندما فات الأوان تقريباً ، حين جاء اليه ابنه ليعلمه بحبه لها ، وبعزمه على الزواج . ولكونه واقعاً في حب جيا ، ولا يرى أي سبيل آخر كيما يستأثر بها ، سوى الزواج ، فقد عزم على أن يعقد قرانه عليها .

على أن والدة جيا لم تكن تدرك بأنّ جيا كانت ما تزال جاهلة هذا

العزم من ناحيته ، وبأنهـا كانت تتكلم بدافع الشجاعة الظاهرية اكثر منها بدافع معرفة الحقائق. وكانت الام متخوفة بطريقة يائسة، لتفكيرها بأنّ ابنتها كانت حقاً في حالة تنفيذٍ لوعودها .

فهتفت بصورة مفاجئة :

« أوعديني بانكِ لن تفعلي أي شيء ، وبأنكِ ستقلعين عن فكرة الكتابة اليه » .

فقالت جيا بصراحة :

« كلا، يجب ألاّ أحلم بمثل هذا الشيء... ماذا ! لكي أتركهم يفوزون؟ لئلا ألوّث اسمهم المجيد السامي ؟ ولأترك نفسي أعامل وكأني خادمة ؟ آه ، سأكون مجنونة ... كلا ، بالفعل ، ينبغي أن أكتب اليه هـذا المساء بالذات » .

« وماذا ستقولين ؟ »

« سأطلب اليه أن يأتي على الفور ، لأني أودّ أن أتكلم اليه » .

وللحظة ظلتا تحـــدقان الى بعضهما بصمت . وكانت والدة جيا تهز رأسها قليلاً ، بحركة كانت مزيجاً من الحزن والإستغفار ، ثم تأوهت ، وراحت ترجو ابنتها وهي تسحبها الى جانبها :

« يا عزيزتي جيا ، تعالي إلى هنا واصغي إليّ ... هناك أسباب مهمة ، وهي مختلفة تماماً عن تلك التي تفترضينها ، وتجعل هذا الزواج مستحيلاً

تماماً.. ولكن ، اذا كنتِ تحبينني ، يجب عليكِ أن تمتنعي عن استيضاحي عنها ، وينبغي أن تفعلي ما أطلب اليكِ » .

ولم تفت جيا لهجة صوت أمها الخطيرة ، إلاّ انها كانت عنيدة ، ولم يكن عندها أيّ نية للإستسلام بأيّ طريقة ، فيما كانت تشك بوجود مصيدة ما .

وأجابت :

« شخصياً ، لا يمكنني أن أرى أية اسباب أخرى ضد الزواج ، ما عدا تلك التي قد جئتُ على ذكرها ... وهكذا سأكتب اليه ... »

واستمرت والدتها تحاول ـ بدون ثقه كبيرة ـ أن تبدي استغاثة للشعور البنوي ، فشرعت تقول :

« ستجعلينني غير سعيدة يا جيا ... ! »
لكن ابنتها قاطعتها بسرعة وهي تجيب :

« من الافضل حقاً أن اجعلك غير سعيدة تماماً ، كما تقولين ، من ان اتصرف انا دون ان اعرف لماذا ! »

« ولكن ستعرفين لماذا ؟ »
« حسناً ، إذن أخبريني »

ولم تكن الام بقادرةٍ على القيام بأي اعتراض أمام هذا المطلب ، ونكست رأسها ، وقد كانت صامتة .

واردفت الفتاة بشيء من الشفقة تقريباً :

« والآن يا أمي العزيزة لقد سمحتِ لنفسكِ بأن تخافي . . . ولكن من الأكيد انّ هذه قضية ينبغي ان نغرس اعقابنا فيها . . . ونظهر اننا من عائلة عظيمة مثلهم » .

ولم تبدُ الام انها تستمع حتى ، وهي بعيدة عن فهم ما تقول ابنتها . ورفعت بصرها اليها ، وظهر عليها انها تتلعثم . سوى أنّ كلمات جيا الأخيرة ساعدت على ان تحملها الى قرارها .

فرفعت رأسها ، وكانت في عينيها تلك النظرة الضاحكة ، المتهورة لأغلب لحظات حياتها المخلصة .

وقالت باقتضاب :

« طبعاً انت مثلهم في العظمة ، لأنّ فيكِ ذات الدم الذي يجري في عروقهم » .

فسألتها جيا بدهشة :

«ماذا تعنين، بحق السماء ؟ »

« عندما كنت فتاة »

أجابتها امها التي كان وجهها الآن ــ كما لو ان قضية ارغامها للسر ، لتخرج منها ، قد بررت لها بالفعل ، شعوراً بقلة حياء ، كان في الامكان اعتباره كل شيء ، إلاّ شعوراً بالامومة ــ قد اكتسى تعبيراً لخيلاء وفرح

سرين .

فقالت :

«لا هـو »

وذكرت اسم مـــالك « الفيلة » « انا وإياه ، كانت لنا عملية حب مشتركة . . . وأنتِ التي ولدتِ قبل ان أتزوج ، تُعتبرين ابنته . . . لا اكثر ولا اقل من آنـّا ولويزا .. ولم اتوقع قط ، ان يخطر لبولو الوقوع في حبكِ ... وإلاّ لكانَ وجبَ عليّ ان اخبركِ من قبل . . . وهكذا ، فأنتِ تعلمين الآن ، لِمَ هو مستحيل هذا الزواج »

واضمحل مظهر جيا المحتَقِر ، ولكن دهشتها بقيت ، وكانت من الكبير بحيث شكت هي فيما اذا كانت قـــد سمعت بطريقة مضبوطة . فسألت :

« وهكذا انا وبولو ، سنكون أخاً واختاً ؟ »

« أجل ، هذه هي القضية ... »

وكأمها التي اطلعتها على هـــذا الخبر بدون أي شعور بالخجل، وبدون أي شعور بالحزن ، وفي الحقيقة ، بشيء من السرور العائد الى الماضي، كانت جيا عاجزة كلياً عن ان تدرك ، كم هو مقدار المأساة الذي كان في هذه الهفوة ، والذي أدّى بها الى ان تعتبر اخاً لها كعشيق .

ولكانت قد شعرت بالرعب لو انها كانت واقعة في حبه حقيقة ، بل

كانت باردة ، وطموحة ، إذ لم تكن تعزز مطلق شعور نحـــو بولو ، باستثناء ذلك الشعور بالزهو .

فقد كانت دائماً تفكر به على اعتباره آلة ؛ وقد منعتها الآن ، احلامها المجتمعية الفارغة ، من أن تقشعرّ أمام عاطفة مميتة بقدر ما كانت مستحيلة. وهكذا لم تلحظ عدم لياقة لهجة امهـا الاشتياقية ، الخاصة ، ولم يدخـل عقلها كذلك ، أنّ تلك الفاجعة لم تكن مجرد قضية حظ ، وبانهـــا هي نفسها كانت قد أثارتها بدلالها الطامح التخميني .

وعلى العكس ، فعندما اضمحلت دهشتهـا الاولى ، هاجمها احساس قوي بالعسف ، وبأسف مرير عنيد . ولم تقبل هي بهـــذا الاحساس في قرارة نفسها ، على انها ندمت تقريباً لأنها لم تطلع على خبر العـلاقة غير المتوقة هذا ، بعد مراسيم الزواج ؛ لكانا قد افترقا طبعاً ، ولكن في نظر العالم لكانت بقيت زوجته ، وهـــذا هو الأمر الذي يهم اكثر من أي شيء . وهكذا ، وحيث إنّ واحـــدة أخرى لكانت شعرت بالنجدة ممزوجة بالجزع أمام خطر قد سُبّب ثم اجتُنِـب بصعوبة بالغة ، لم تر هي شيئاً سوى انها كانت كارثة اجتماعية . والأشيـــاء المفقودة كانت « الفيلة » ، والصداقات ، والدعوات ، والحفلات ، والراحات .

وامتلأت عيناها بالدموع ، وأشارت لامهـــا التي كانت تبحث عما تؤاسيها به بأن تهدأ ، وراحت تنتحب لوقت طويل فيما كان رأسها محنياً

الى الأمام ، ومنديلها فوق وجهها .

وبين آن وآخر كانت تصعّد زفرات عميقة ، وتشعر معهـا كما لو أنّ العضلة الفاصلة[1] كانت منشطرة الى شطرين في صدرها ؛ فيما كانت تندفع الى عينيها دموع عذبة غزيرة . فالهموم ، والأباطيل ، والمطامح ، والرغبات ، أي كامل عقدة الامور المكبوتة ، والأشياء التي كانت قد اشتاقت اليها في الأوقات الاخيرة ، كانت جميعهـا مشدودة الى الدموع ، كأنها عكاك[2] غير صحي ، ذاب في عاصفة رعّادة .

وفي النهاية رفعت رأسها ، مظهرة عينين قد جفتا في وجههـا النحيل الساطع .

وقالت أمها التي كانت تنتظر بفـارغ الصبر تقريباً ، أن ينتهي نحيبهـا :

« آه ، أجل إني اعرف ، إنّ مثل هذه الأعمال ليست بمفرحة . ولكن ماذا نستطيع ان نفعلَ بشأنها ، يا عزيزتي جيما ... ؟ فإني انا ايضاً ... »

ولكانت قد استمرت تمزج تعابير الراحة ، والذوق البارد والعديم التأثر ، بطرق موثوقة حول قضية حبها الميتة منذ وقت طويل ، لولا أنّ جيما لم تقاطعها بدافع من شعورها بالتبرم ، اكثر منه بالكرامة ، قائلة :

---

(١) Diaphragm وهي هنا عضلة فاصلة بين الصدر والجوف .

(٢) Sultriness العكاك ، اي شدة الحر والرطوبة ، مع احتباس الريح .

« لا تدعينا نتكلم حول هذا الموضوع بعد الآن ، يا أمي ، لن نتكلم عنه مطلقاً من جديد » .

وبالنسبة للأم فقد كانت هذه التوصية بعيدة جداً عن الموافقة ؛ فمنذ ثلاثين عاماً وهي تنتظر اللحظة المباركة ، عندما يمكنها ان تتذكر في النهاية ، جهراً ، وبعد صمت طويل جداً ، هـذه الزلة المحبوبة من ضمن زلاّتهـــا .

والآن وقد جاءت هذه اللحظة ، فعليها أن تردع نفسهـا وتحتفظ بالصمت من جديد . ولمن ستكون يوماً قادرة على ان تتكلم عنها ، إذا كانت ابنتها قد رفضت ان تستمع اليها حتى ؟ وأي متى سيكون لها هذا ؟ حقاً أنّ الحياة الآن لم تعد تستحق أن تُعاش . لكنهـــا فيما كانت تخضع نفسها من جديد، ظلت ساكنة بطريقة فيها شيء من الارتباك، وراحت تتظاهر بأنها تعيد توضيب بعض الاشياء فوق الصوان .

ولم تستطع إلاّ ان تبدأ ثانية ، بعد لحظة :

« حسناً ... لقد احبني كثيراً في ذلـك الوقت . . . وقد شاء أن يتزوجني إلاّ أنّ أهله قد مانعوا ... »

وبقيت جيما بدون حراك ولم تجب .

وتابعت أمها مشجّـعة بهذا الصمت :

« على كل حال ، ليس هناك ما تخجلين منه على الاطلاق . . . فأنتِ من ذات النسب ، وسيكون لكِ الحق بالاسم ... »

ولم يكن هناك من جواب كذلك . وأصرّت أمها :

« ولكنكِ سترين بنفسكِ ، فانهم سيدعونكِ من جديد ، في السنة القـــادمة » .

وذلك كان كثيراً جداً بالنسبة لجيما، التي اشمأزت من كل هذه التعليقات المتهورة الحمقاء ؛ التي كانت كما لو انها قد وُضعت في حالة استهزاء .

فصرخت فجأة وهي تقفز على قدميها في حالة غضب :

« كفى ! لقد أخبرتكِ بالاّ تتكلمي عنها... أرجوكِ ، كوني طيبة معي ، واتركيني وحيدة » .

وفيما كانت الارملة مرتبكة ومذلولة، وقد أخضعت نفسها هذه المرة، بالفعل ، لأن تكفّ عن الكلام ، وتبقى في صَمْتٍ يجب ان يكون الآن نهائياً ، اقتربت واحتضنت ابنتها التي كانت تقف جامدة وضجرة ، ثم تركت الغرفة بسرعة .

## ٧

وعلى عكس القول العامي ، فقد أتى الليل لجيما برأي غاية في السوء . وظلت فترة من الوقت عـــاجزة عن النوم . فاضطجعت في الظلمة ، وعيناها مفتوحتان ، وراحت تفكر بالمستقبل .

ولكن افكارها عادت الآن لتنسحب من التفكير بالمستقبل ، برعب شديد ، وكأنها أصابع تنسحب من جثة ميتة باردة . والروح الطامحة التي كانت ما تزال تضفي على أيام المستقبل تلك ، بعضاً من ابتسامتها ولونها السار ، قد ماتت الآن كلياً ، بالفعل .

وأمام بُعْد الوقت الخـــالي ، لم تشعر جيما ـ كاولئك الاشخاص المرضى الذين يشعرون باقدامهم ترتخي تحتهم ، ويقعون خائري القوى عند رؤيتهم لساحة خالية ، او لفسحة ما اخرى ، شاسعة ومهجورة ـ لم تشعر بأي فضول او رغبة للاندفاع نحو الامام ، وإنما بالأحرى، أحست بقشعريرة اشمئزاز عنيفة ، وبدافع جنوني لأنْ تستدير وتهرب ، لأنْ

تعود الى الوراء . وليس الى السنوات الحديثة جداً ، والتي في نظرها سنوات غير سعيدة، وإنما الى السنوات القصية من طفولتها. الى السنوات التي لم يكن قد لاحٍ لها فيها بعد أي شعور بنفسها او بعالمها ؛ فقد كانت تعي نفسها وهي تضرب ، ولا تدري شيئاً عن النكبة التي قد اصابتها ، او عن القوى التي مهدت لهذة النكبة ؛ ولم تكن تدري كذلك أيّ شيء عن حياتها الشخصية، ولكانت قد كرست عن طيِّب خاطر ، كل مطمح لاستمرارها .

وفي مثل هذه الحالة العقلية اليائسة ، انخرطت في النوم ؛ وفي هذه الحالة العقلية عينها وجدت نفسها كذلك في اليوم التالي . وفي الصباح دخلت امها كالمعتاد لتصحيها . فقالت لها بنعومة ، وهي تسير في الغرفة المظلمـــة :

« هيا ، يجب ان تنهضي . ففغنوزي ينتظرك لتخرجي معه ... »

وبدون ان تبدي جيا حراكاً ، وهي بالكاد تستطيع ان تفتح عينيها فوق الوسادة . استطاعت ان تتذكر بأنه كان يوم الأحد ، وبأنها كانت قد وعدت فيغنوزي وصديقاً آخر لتمضي معهما في نزهة في ضواحي المديـــنة .

وقد ذكرها اسم فيغنوزي ، بطريقة مضطربة ، بأشيـــاء أخرى عديدة ، وهكذا ، وكمريض يستفيق شاعراً من جديد بألم الليلة السابقة ،

فيمد يده بسرعة الى القسم الصحيح منه ، الذي سيغرقه في النـــوم مدة أخرى ، قد اتخذت هي ، بدون أي تردد ، قراراً شديد الاهمية .

وأعلنت بصوت بطيء حاد :

« أخبريه بأني تعبى ، ولن اذهب الى النزهة . واخبريه كذلك بأني قد قبلت طلبه ، وبأني على استعـــداد لأن أصبح زوجته بالسرعة الممكنة . . . »

واستفهمت أمها وهي مرعوبة تقريباً :

« ماذا ؟ ماذا ؟ »

فكررت جيما وهي تغلق عينيها من جديد :

« أخبريه بأني على استعداد لان أتزوجه » .

« ولكن هل تتكلمين بجدية ؟ »

« أجل ، إني أتكلم بجدية !»

أجـــابت بتنهيدة ، ثم تابعت بصوت أعلى ، وعلى وشك ان يحتد غضباً :

« هل فهمتِ ؟ »

« أجل ، سامضي وأخبره حالاً »

« هذا حسن . . . أما الآن فاذهبي واتركيني أنام » .

وحالما نطقت بهذه الكلمات ، ادارت وجهها الى الجدار ، وبما أنها كانت متعبة لانها لم تنم سوى ساعتين ، ليس غير ، راحت بسرعة تغط في النوم من جديد .

وعندما استفاقت ، كان النهار في منتصفه ، وفيما كانت تتذكر الحكم الذي اعطته لامها ، وجدت نفسها مسرورة لاتخاذها مثل هـــذا القرار بدون ان تفكر تقريباً ، وفي لحظة كانت فيها نصف نائمة .

والآن لم يبقَ عندها أي أمل، ولم تعد ترغب في أي شيء، وفيغنوزي رجل طيب وعظيم مثل غيره. وبهذهالفكرة التي تركزت في عقلها بمتانة، استطاعت ان تقوم بالمقـــابلة الاولى بينها وبين المتقدم للزواج منها ، بسهولة كبيرة .

لقد وجدت فيغنوزي في غرفة الطعـــام ، إذ عندما سمع الخبر من الارملة ، لم يتخلَ عن فكرة النزهة وحسب ، وإنما بقي وهو يجلس الى الطاولة، مدة ثلاث ساعات دون حراك، مثبتاً عينيه على باب غرفة جيما. وعندما رآها تطل عليه ، هبّ واقفاً وسألها متلعثماً وهو ينزع نظارته عن عينيه ، عما اذا كانت فعلاً قد وافقت على ان تصبح زوجته .

وللحظة ، وكما لو أنّ جيما كانت الآن تلاحظـه للمرة الاولى ، فقد شعرت بأنها مرعوبة لرؤيته واقفاً امامها ، نحيفاً وأصفر وأصلع للغاية .

ولم تستطع ألاّ تفكر بأنّ هذا ، هذا هو الرجل الذي هي على وشك

ان تربط نفسها به طوال حياتها . إلاّ أنهـــا في الحال تغلبت على هذا الانحراف الفكري ، وأجابت على سؤاله بحزم فيما كانت تنتحل اسلوباً رصيناً ، هي بعيدة جداً عن ان تشعر به .

وهنـــا بدأ فيغنوزي يشرح بأسلوب مرتبك ، جميع المشاعر التي أوحتها فيه صفقة الحظ الكبيرة هذه. لقد كان سعيداً، ولم يؤمن بسعادته فقد ادرك أنه لا يستحقها ، وخيّـل اليه أنّ قضية اتحادهما معاً قريباً ، برباط الزواج ، أمر لا يمكن ان يصدق .

وفيما كان الانفعال يدفع جـانباً بغشاء العصبية والغرابة الخارجي ، أماط اللثام فيه عن عالمٍ من المشاعر ، رومنطقي غريب وقديم الطراز .

كان يبدو كما لو ان لم يسبق قط وكان له شأن مع النساء ، وقـــد ورث، عن بعض مخلفاتٍ عائلية بالية للغاية، أراء زمن آخر، قد اصبحت الآن مبتذلة ومهملة . وفيغنوزي ، بالرغم من ثقافته ، فهو ما يزال ، من ناحية المشاعر ، يعيش في قرون سابق ، إن لم يكن اكثر من سابق فقط .

وكانت لديه القدرة المخلصة وغير الواعيـــة على تغيير هيئة المرأة المحبوبة ، ورؤيتها بصورة مثالية ، هـذه القدرة التي توجد احياناً عند الفلاحين والاشخاص البسطاء .

على أنّ جيما التي كانت تبدو بمظهر الرصانة فقط ، والتي استمرت وراء الوجه الذي انتحلت ، تعزز كالسابق ، الازدراء عينه بالرجـــل

التعيس – وهو ازدراء قد عظم ، فوق كل شيء ، بالخيبة – لم تكن ترى شيئاً ، ولم تكن صاحية على شيء .

وبالنسبة اليها فقد ظلّ فيغنوزي ، كالسابق ، بل اكثر من السابق ، مخلوقاً أحمق ، سخيفاً ، يستحق الازدراء ، ومجرداً تماماً من كل الصفات المرغوب فيها .

وبكيفية ما ، راحت تستمع اليه ، مرغِمَةً وجهها على ان يكتسي تعبير الاحسان الهادىء . ثم قالت مجيبة :

« انا افضّل ان اقول الحقيقة ، فاني لا احبك بأية طريقة في الوقت الحاضر . . . لكني أحسّ بأني مع الوقت سأحبك . وهكذا ، فكل شيء يتوقف عليك » .

لم تكن هذه الكلمات لتعني شيئاً ، وإنما كانت أكاذيب ، فهي لم تحبه، وقد صممت منذ الآن بأنها لن تحبه ابداً . وهذه الكلمات قد خرجت منها بلهجة نادرة ، ملأى بالصراحة والوئام، بحيث اضفت على وجه فيغنوزي سيماء الطيبة .

ومضى يفكر ، كما كان يفكر كذلك الكثيرون من العشاق التعساء دائماً ، في المناسبات عينها ، بأنّ الرعـــاية اللطيفة والوقت ، سيكونان قادرين على تبديل الود الفاتر الى حب حار . وشكرها بحرارة مفرطة ،

وكأنه يشكرها لأجل عمل فيه مروءة غير مؤمل بها فعلاً .

وبعد لحظة دخلت امها وهي ترتدي ثيابها لتخرج ، وقد اعتمرت قبعتها ، ولفّت فروها الصغير حول عنقها ، وبطريقة مرائية ولكنها ودية ، راحت تصرّ على تهنئة فيغنوزي الذي وفى نفسه بالقـــدر الذي استطاعه بأن اشار الى جيما . فكان كممثل يستغفر تهليل الاستحسان ويشير الى مؤلف المسرحية .

واخيراً خرجت المرأتان الى القداس ، تاركتين فيغنوزي ليستمتع بسعادته الجديدة بنفسه .

ومنذ ذلك الحـــين فصاعداً ، ظلت جيما بدون انقطاع محتفظة في علاقاتها مع خطيبها ، بذات الهيئة الرصينة ، المجردة ، وهذا صحيح، من غطرستها الفطرية ، ولكن المجردة كذلك من كل دليل للعاطفة .

وقد كان ذلك كلحن حقيقي مفردٍ ، مـن الافضـل كثيراً ان يردد بصورة مطلقة ، من ان يصدر عن النغم .

وكان فيغنوزي بكونه خطيباً يثير اشمئزازها اكثر – ان جاز هذا التعبير – من كونه نزيلاً . وغدت الآن غراباته وألاعيبه العصبيةالمعتادة، ممزوجة بتعابير الحنو، وبمظاهر الغشية ورقة الأحاسيس، بحيث اصبحت لها القدرة على اثارة جيما بشكل يفوق الحصر .

زد على ذلك انه قد اقلع كلياً عن عـــادة الذهاب الى المقهى في الامسيات ، وراح يمكث في المنزل كيما يمثل دور العاشق مع جيا . ولم تعد تستطيع هي الآن ، وهما مخطوبان ، ان تتخذ من غرفتها ملجأ ، تاركة إياه وحيداً مع امها كما كانت تفعل سابقاً .

وهكذا كان الخطيبان يجلسان على كنبة قديمة وخضراء قاسية ، في الطرف القصي من غرفة الطعام ، بينما تتخذ والدة جيا مجلسها ، بحجة جلوسها بقرب نور المصباح الكهربائي ، في طرف الطـــاولة المواجه ، وتروح تقرأ او تخيط شيئاً .

وكان فيغنوزي يأخذ يد جيا بيده ، ويشرع يتحدث اليها بصوت منخفض ، وهو يستدير ويلوي نفسه فوق الكنبة ، بوضع لطيف وانما غير مريح .

كان يتكلم عن زواجهما ، ويقوم بشرح حياتهما في المستقبل ، ويعطيها معلومات بصدد اذواقه وافكاره وأمنياته ، إذ كان ينشد ان يتوصل الى معرفتها ، وان يجعلها هي تقف عـلى حقيقته ، وقـد تكبد في الواقع ، مجهوداً كبيراً ليتصرف وكأنه خطيب .

ولم يكن يعلم كذلك بأنه قد افلح الى حد بعيد . وكانت جيا نادراً ما تجيبه وهي ذاهلة لا تبدي حراكاً ، إلاّ انها عندما كانت تفعل ، لم يكن

في لهجتها خشونة أو ملل . مع أنهــا غالباً مـا تكون باطنياً ، ت ت
بأنها تغلي بالحنق والضجر والتبرم .

وبين الحين والآخر ، كان فيغنوزي يطبع على جبهتها او على وجنتها قبلة باحتشام ، ومرة وحيدة فقط ، خلال فترة خطبتهما، كان جد جريء في ان يمس شفتيها .

وكانت جيا وهي مستسلمة ، تتركه يفعل ما يشاء ، على اعتبار أن الملامسات الجسدية لم تكن تبعث على اشمئزازها ، بقدر ما كانت تبعث المحادثات على ذلك .

وقد كانت تستمد القوة للاحتفـاظ بتظاهرها هـذا ، ولاحتمالها كل المضايقات الكثيرة ، من الأمل بأنهما بعد الزواج سيتركان بأقصى سرعة ممكنة ، بلدتها هذه مسقط رأسها ، حيث لم تعد تحتمل ان تبقى فيها ابداً، وسيذهبان ليستقرا في روما ، مخلفة وراءها « الفيلة » ومبـــاهجها الاجتماعية .

وكانت الآن تعزي نفسها بسراب العاصمة . مثل النملة التي عندما ينهار وكرها تتاهب في الحال لبنـاء واحد آخر . وكانت مخيلتها المجدة والمتماسكة قد شرعت باقامة ابنية وهمية معقدة للنجـــاح ، وللحظ غير المتوقع هناك .

وكانت هذه الأمسيات طويلة ، طويلة جداً بحيث تعلمت جيدا فيها لعبة الشطرنج ، التي كان فيغنوزي مولعاً بها ، وراحت تحاول التجاوب معه في احاديث متبادلة ، ولكن الذي كان يحدث ، هو انها كانت تشعر نحو فيغنوزي ، وهما يلعبان معاً ، بكراهية اكبر من تلك التي تشعرها حتى حين تكون تتكلم اليه . إذ انها لم تكن تحب الخسارة ، وكان السرور الساذج الذي يبدو على خطيبها عندما يربح ، يجعلها ترتجف غضباً .

وفي مثل هذه اللحظات ، لم تكن تستطيع ان تكبح جماح نفسها عن رشقه بملاحظة ما نكدة ، وفيما يفشل هو بفهمها ، وبوصفه جـاهلاً كذلك لكل خشونتها ، يخطىء الظن بالسخرية غير المؤذية .

وهناك شيء آخر كان يملؤهـا بالغضب غير الممكن ضبطه ، وهو التهكم المتهور الذي كان فيغنوزي ، من حين الى آخر ، وبطريقة مزاحه المتحذلق كاستاذ ، يتناول فيه موضوع المجتمع العالي العنيف . ولم يكن لديه أي تصور للاشمئزاز الراسخ الوطيد ، الذي كانت تشعر به جيدا نحو قضية اختصاصه ، وعلى العموم ، نحو أي عمل عقلي .

ولانهماكه في عالمه ، لم يسبق له واختبر أي نوع من الحسد او الرغبة ليشكل بهما في حياته جزءاً من هذا العالم ، ولم يكن في وسعه قط ، أن يدرك كيف أن اصدقاءه والناس المتشابهين بالمظهر بالنسبة اليه ، يستطيعون أن يصرفوا حياتهم كلها ، وهم يرقصون ويقامرون ويتدللون ، وفي الحقيقة يركضون وراء المتع اللاهية ، والتفاهات .

وأناس المجتمع يبدون له أناساً متصنعين ، مليئين بالأشياء السخيفة التي تشغل رؤوسهم بالهمّ ، وهم مغفلون وعقيمون في قلقهم وخبلهم ؛ وجميعهم يبعثون على الضحك والسخرية ، وفيما يكون يتكلم عنهم لا يستطيع ألاّ يبدأ في الضحك بطريقته السمجة العصبية المميزة .

أو كان يقدم ايضاً كشفاً بالنكات التي كانت دائماً تقريباً ، نكاتٍ غير جديدة ، وإنما مستخرجة من الصحف الهزلية ، التي كان يلتهمها بشره كبير .

والقيام بأي سخرية الآن ، حول العالم الذي كانت هي تعبده وتحنّ اليه، كان بالنسبة اليها أكثر من أن يثير حنقها، كان بمثابة وقاحة إيجابية.

فضلاً عن أنها لم تتخلَّ بعد عن أملها بشق طريقها في هذا العالم ، في يوم من الأيام ، حتى ولو كان ذلك تحت اسم فيغنوزي الرخيص والباعث على الاشمئزاز . بالإضافة الى أنّ نوعاً من أنواع غرورها المتناقضة ، الذي يمكنه ان يستمد امتيازه من أي شيء ، حتى من الخضوع والانكسار ، قد رفع من كبريائها ، بوحي من قصة علاقة أمها السرية بعائلة اصحاب « الفيلة » ، بدلاً من ان يذلها .

وخُيِّل اليها بأنها حتى ولو كانت ابنة غير شرعية، فهي بأي شكل، ليست من نسل عامي ، وإنما من سلالة ظاهرة ، يمكن تعقب أفرادها . ولو لم تشعر باهتمام بالنسبة لامها ، لكانت اظهرت أصلها علانية ، وعن طيبة خاطر .

وهكذا ، فقضية ابعادها عن عالم يبدو اليها انها تنتسب اليه بحق ، كانت تبدو قضية جائرة كلياً . وكذلك استهزاءات فيغنوزي العديم الشعور ، التي كانت تبدو اليها جد مسيئة .

وفي المرة الاولى ، جعلته يدرك بأن مثل هـــذا المزاح حول هذا الموضوع لم يسرها. وفي المرةالثانية ظلت صامتة، ولكن ببعض الصعوبة. أما في المرة الثالثة فلم تحاول أن تضبط نفسها ، فقد حملت على فيغنوزي بهجوم كان من العنف بحيث أدهش أمها حتى ، التي كانت تقاسمها رأيها ، وتعتبرها على حق دائماً في هذا النزاع .

والباعث الجوهري لهذا الهجوم ، الذي تردد وكأنه انغـــام ملهمة سامية في احـــدى السمفونيات، هو أنّ ظِفرَ اصبع واحدة من أصابع اولئك الرجال ، الذين كانت توّجه اليهم استهزاءات فيغنوزي ، كان يساويه قيمة ، هو وعلمه وحقل اختصاصه .

وقد كان يتكلم هكذا بدافع الغَيْـرة والحسد اللذين يحسن اخفاءهما ، لأنه كان يدرك بأنّ أبواب ذلك العالم الذي لن يقدّره مطلقاً ، على أنه جدير بنظرة حتى ، ستبقى مغلقة بوجهه دائماً .

وقد أثار هذا المشهد دهشة كبيرة في نفس فيغنوزي ، الذي لم يسبق له وتصور قط ، بأنّ الانسان يستطيع أن يرغب أو يقوم بأي شيء في العالم ، يكون اكثر اهمية من القيام بدراسة الطبيعيات وتعليمها . ولكن

لم يتسن له الوقت ليحاول ان يقوم بأي احتجـــاج او شرح ، لأن جيا هبت واقفة ، وتركت الغرفة وصفقت الباب وراءها .

هذه كانت مشادتهما الوحيدة . على أنّ والدة جيا أعادت جمعهما من جديد ، في اليوم التالي ، ولكن لم يكن ذلك خالياً من الصعوبة. وفي نهاية شهر تموز ، وبعـــد خطبة دامت اكثر من شهر بقليل ، عُقد قرانهما بطريقة متكتمة تقريباً ، في كنيسة تقوم في الجوار .

وقد كتبت جيا الى صديقتيها في « الفيلة » رسالة تعتذر فيهـــا عن عدمْ دعوتهما . ولكنها في النهاية ، وهي مستسلمة لغريزتها القديمة في سرد الأكاذيب ، لم تتمكن من المقاومة بأن تشير الى زوجها على أنه رجل غني جداً ، وأنّ لديه منزلاً كبيراً في روما ، حيث سيذهبان ليقضيا فيه ذلك الشتاء . ثم بعد ان ودعت أمها ، غادرا الى فينيس في رحلة شهر العسل .

# ٨

وبذات الشغف الذي كان قد انصهر مرة في أملها بأن تصبح لبولو ، راحت جيا تتمسك بفكرة ترك بلدتها ، مسقط رأسها، للاستقرار في روما .

وكان زوجها قد وعدها بذلك ، ولكن بدون هـذا التأكيد المطلق الذي كانت قد كتبت به الى الشقيقتين في « الفيلة » .

ولكن عندما عادا من رحلاتهما، حوالي منتصف شهر ايلول، أخبرها فيغنوزي بأنه في الوقت الحاضر ، لا يستطيع ان يامل باي شكل، تعيينه في روما . وهكذا ، فقضية انتقالها من البلدة في ذلك الشتاء ، كانت أمراً لا يمكن الاتيان على ذكره بأي طريقة .

وخيبة الأمل هذه ، مضافة الى خيبات أخرى عديدة ، كانت قد سبقتها، أغرقت جيا من جديد في ضجرها القديم اليائس والثائر: فهل إذن قدّر لها وبوصفها عروساً حتى ، كما كان مقدراً لها قبل ان تتزوج ، بأن

تمضي كل حياتها في هذه البلدة، حيث إنّ كل شيء، كل شارع، كل شخص، لا يذكرها إلاّ بضغط الفاقة ، والاهانات ، والخيبات المريرة ؟ وهل إذن أمر اخضاع نفسها للزواج من فيغنوزي لم ينفع أي غاية من غاياتها مطلقاً؟

هذه الافكار، وأفكار أخرى شبيهة بها ، مشحونة بالغضب والضجر، راحت تسيطر عليها اكثر فاكثر . وكشحنة سيئة التوضيب والربط تشرع في بحر هائج، تتدحرج وتنزاح من مكانها كثيراً في «عنبر» السفينة، بحيث تتهشم اخيراً ، وتؤدي الى غرق المركب ، هكذا راحت تلك الافكار تنتفض وتثور في عقل كسولٍ وفارغ كعقلها ، بحيث انتهت اخيراً بدفعها كلياً الى الشرود ، والى اعداد السبيل لتصاميمَ فاسدة .

وكانا الآن قد تركا والدة جيا تعيش في منزلها القديم ، في ذلك الزقاق، وذهبا ليسكنا في منزل جديد يقع خارج الاسوار .

وكان هذا المنزل بجدرانه الحجرية القاسية الدكناء ، وسقفه المكوّن من الآجر الاحمر ، ونوافذه الخضراء ، يقوم فوق صخرة مضرّسة الشكل ، حيث يستطيع المرء منها رؤية الأودية والهضاب بقدر ما تستطيع العين ان تمتد الى الناحية اليمنى من الافق الجبلي البعيد .

لقد كان صقعاً معتماً مقفراً ، بدون أية منازل لمزرعة ، وبدون حقول مزروعة ؛ وإنما كان مدججاً الى ما لا نهاية ، بنباتات شجرية قصيرة منخفضة ومضرّة .

وفي فصل الصيد كان صدى الطلقات النـــارية الحاد يُرجّع في تلك البقعة . وبعض اقسام صغيرة من هذه الأجمات الشجرية كانت دائمـــاً تُحرق لأخذ الفحم الخشبي منها ، فتبدو البقعة سوداء دخانية وسط الأجمة الصفراء . وبالتالي لم تكن في ذلك الصقع اية اشارة للحياة .

أما في اتجاه البلدة ، فقد كانت هناك بضعة منازل اخرى أشبه بمنزلهما تماماً ، منثورة بغير انتظام بين الصخور والقمم . وخلف هـذه المنـازل كان المشهد يبدو مسدوداً بتلك الجدران العظيمة ، ذات اللون الأشهب الحديدي التي ترتفع نحو السماء بشكل كئيب ، متتبعة نتوءات وتجويفات السفح الصخري ، مع سلسلة من البروج والركائز .

وبما أنّ باب المدينة كان محجوباً بأحد هـــذه البروج ، فقد بدت الجدران مـن بيت فيغنوزي ، منبسطة وصلبة تمـاماً ، وكما لو أنـّ لا فتحة لها .

وهكذا ، وفي تضاريس تلك الأرض ، يتملكك شعور بأنك وحيد تماماً ؛ وفي الداخل ، كانت الأبواب المصنوعة من الخشب المأخوذ في فصل سيىء ، تصرّ ، والصمغ ما يزال ينزّ منها .

والغرف كانت تردد الصدى مصحوباً بدوي مثبطٍ للعزيمة ، كالذي يُسمع في مغارةٍ ما . وكان مـا يزال هناك بعض الرشاش من الجير فوق زجاج النوافذ ، وكانت ثمة حديقة مربعة الشكل ، لكنها عارية إلاّ من بعض

التربة ، ومن كمية كبيرة من الحَصَى المدببة البيضاء ، التي تلقي فوقها الأسنةُ الحديدية للسور المحيط بالمنزل ، ظلالها في ساعات ضياء الشمس .

وقد خُيّل لجيما ، عندما ذهبت الى المنزل في المرة الاولى ، بأنها في ملحق لأحد المستشفيات او السجون ، وهذا ما قالته لزوجها .

أما فيغنوزي فقد بدا والدهشة تظلله ، لأنه وهو العاشق الكبير للطبيعة والمتحمس للمناظر المكشوفة العامة ، كان قد اعتقد بأنه يقدم لزوجته متعة كبيرة بأخذه لمنزل كهذا ، حيث تستطيع العين منه أن تطوف حول نصف الاقليم .

إلاّ أنه أخفق في أن يلاحظ هيئة الجدران الكئيبة ، والوحدة التناسقية المملة للصقع البري المشجر ، الذي يبدو داكناً بكامله ، يكتنفه الضباب في هذا الفصل ، من جراء سحب الدخان الأبيض الذي يرتفع هنا وهناك من المشاجر .

وقد كان هو يرفض بعناد وبأي شكل ، ان يتعرف الى هذه الامور المؤذية المملة . والشيء الوحيد الذي كان يقوم به فيما كان يردد طوال الوقت بأنّ المنزل كان جميلاً ، وفي موضع مدهش ، هو أن يعِدَ جيما بأنه بعد فصل الشتاء إن لم تتم قضية نقله ، كما كان يأمل ، فلا بدّ أن يذهبا ويعيشا في وسط المدينة .

أما هذا الخلاف حول وضع المنزل ، فقد كان الحدث الاول الذي يدل الى الانحراف في الرأي بينهما منذ زواجهما . وقد اكتشفت جيما بدهشة مزدرية، بأن فيغنوزي كان يخفي تحت مظهره الخارجي الساذج والعصي، خُلُقاً أشدّ بأساً ، واكثر استبداداً ، مما كانت قد تصورت في السابق .

وكانت في هـذا المنزل الوحيد ، تشعر بالضجر الكبير ، بينما يكون زوجها منهمكاً بعمليةالتدريس او بعملية تنفيذ تجاربه في مختبر الجامعة .

ومن ناحية القراءة، فلم يكن ثمـــة أي جدل ، إذ بغضّ النظر عن مجلات الافلام والقصص البوليسية ، فلم يكن لديهـــا قط ، أدنى رغبة نحو القراءة .

ولم يكن منزلها ليهمها ، وبناءً على ذلك فقد تخلت عن أموره كلياً للخدم ، بنتيجة أنه ما برح ، بالنسبة اليها ، كئيباً ومكرباً بقدر ما كان عليه يوم دخلته للمرة الاولى .

وجميع تلك المجالات الاخرى المسلية ، كالخياطة والتطريز والعزف على البيانو ، هذه المجالات التي كانت تكرس لها حياتها وهي طفلة، راحت الآن تشعرها بالاشمئزاز ، ربما كان ذلك لأنها كانت تعيد الى الذاكرة تلك الفترة غير السعيدة من حياتها .

وأما بالنسبة للحديقة ، فلم تفكر جيما بأنها تستحق ان تُلقى اليهـــا نظرةٌ حتى ، وهكذا فقد ظلت صخرية وعارية إلاّ من بعض الحشائش

الذابلة المنتشرة هنا وهناك، ومن أسنّة السور الحديدي السوداء العارية، التي تذكّر بالسجن حقاً . وكل ما تبقى لها ، كان الاهتمام بنفسها ، وبعض طرقٍ قليلة للهو كانت تهيئها البلدة .

وقد اكتسبت جيما عادة النهوض من سريرها حوالي منتصف النهار، وتخصيص نصف وقت بعد الظهيرة لتقليم أظافرها وصقلها بالطلاء، وتجعيد شعرها ، والقيام ببعض الأعمال المسلية المماثلة . ثم تبدأ في ارتداء أبهى ملابسها بطريقة جد بطيئة ، كما لو أنها تكون ذاهبة إلى مهرجان ما ، وتمضي مع إحدى صديقاتها لتتنزها في شارع كورسو .

وهناك، وبين الحشد الذي يملأ ذلك الشارع الرحب غير المضاء جيداً، كانت تتعرف إلى الناس العاديين ، الذين كانت قد رأتهم لسنين كثيرة خلت ، وتحييهم .

وفي بعض الأحيان كانت تقصد كذلك إلى بائع الحلوى ، فتجلس في الغرفة الكبيرة ، مكان التقاء المجتمع المحلي ، وفيما كانت تدخل ، كان شبان المدينة الأنيقون يرحبون بها ببعض الاشارات اللطيفة، ويستديرون ليحدقوا اليها .

ومرات أقل كثيراً، كانت تمضي الى السينما ، ليس لأنها لم تكن تحبها وإنما لأنّ الفيلم لم يكن يُغير إلا مرة واحدة في الاسبوع . وذلك كان محصوراً في تياترو المدينة القديم ، وهو قاعة كبيرة مغمة ، ذات صفوف

أربعة من المقاصير الحمراء الموشات باللون الذهبي ، وقبة عليهـــا بعض الرسوم الزيتية . وأما في الأصل فقد كان هذا التياترو يعرض المسرحية الغنائية الكبيرة فقط ، ثم بدأ فيه الانحطاط مع بداية هذا القرن .

ومن المسرحية الغنائية انتقل الى المسرحيات النثرية، وإلى المسرحيات الهزلية ، ثم الى التنويع ، واخيراً الى حفـــلات تمثيلية عرَضية يعود ريعها للإحسان .

وطريقة تحويله الى دار للسينما ، حافظت عليه من أن يغلق أبوابه في النهاية ، وفي الوقت عينه ، وبشكل ما ، عززت هذه الطريقة قضية انحطاطه ، واحتفظت بها .

أما الطلاء الذهبي فقد راح يتقشر ، مظهراً الجبس الابيض، ورسوم الحوريات الزاهيات داخل القبة بدت مبرقشة ببقع واسعة من الرطوبة . وقد استُبدلت المقاعدُ المخملية الحمراء القديمة بكراسي حديدية . وكانت هناك دائماً رائحة متعفنة تنبعث من الأحذية الرطبة ، ومن دخان التبغ البارد ، والنشارة الندية .

وخلال فترات الاستراحة لم تكن تضاء سوى أنوار الصف الأول من المقاصير، بينما تبقى بقية القاعة غارقة في ظلام داكن ، كسيرك مهجور .

وتُذكّر الشاشة البيضاء في ذلك النـور الباهت ، وهي معلقـة فوق الستائر الحمراء والمخملية المعتمة ، بعلامة جنائزية محزنة .

لكن هذه الوحشة لم تؤثر كثيراً على جيا التي قلما كانت قد خرجت من بلدتها هذه ، والتي تملك عدم الحساسية نحو القذارة التي هي نموذج الريفيين .

وعلى عكس ذلك ، فقد كان التأثير كبيراً عليها من جراء الأصوات البشعة العالية ، التي كانت اصداؤها تدوي بغرابة مدهشة في أجـــواء التياترو الوسنانة ، ومن الوجوه الكبيرة ، المظلمة والملأى بالمسام ، والتي تتقابل شفاهها المصقولة على الشاشة بقبلات حارة وطويلة مصوّتة . ولم تكن هي لتترك مشاهدة فيلم واحد تفوتها ، وعندما كانت تفشل في ايجاد صديقة ، لم تكن لتتردد بالذهاب بمفردها .

وأما الصداقاتُ فلم تكن لتُكتسب صدفة ، وإنمـــا طبقاً لمشاعرنا المتسلطة ، وفي غُضون ما تبقى من ذلك الخريف ، أقامت جيا عـلاقة وطيدة بينها وبين امرأة رومانية تدعى الفيرا كوسيني . وبأي طريقة وبعد أية مخاطرات حدث ان وصلت تلك المرأة الى هذه المدينة الصغيرة ، لم يكن أحد ليستطيع التوضيح . وقد ذُكر عن مرجعٍ موثوق ، بأنهـا كانت كونتيسة ، ومن عائلة عظيمة للغاية . ولكن لو تجشم أحدهم مغبة الاستطلاع عن مصدر هذا الخبر ، لكان اكتشف بأن الفيرا كوسيني هي نفسها كانت قد أذاعته .

والشيء الوحيد الأكيد ، الذي كان معروفاً عنها هو انها قد أتت منذ قبل سنتين لتستقر في هذه المدينة ، حيث بفضل اسمها الغريب الذي اضفى

عليها نوعاً من الصفة المميزة ، وبفضل التقارير التي كانت تنشرهـا هي بحرص شديد، وفوق كل شيء ، بفضل اقدام وقح غير اعتيادي، أفلحت في ظرف مدة قصيرة ، بأن تجعل المجتمع الأفضل بكامله في هذا المكان ، يتقبلهـــا .

وكان بعض الرجال الأغنياء ، وبشكل خاص ، أولئـــك الذين قد أرغمتهم عائلاتهم لأن يعيشوا في الأقاليم ، أولئك الذين يشعرون بالتفرّيج عن عطشهم للتبذير والمغـــامرة في ان يقـامروا ، ويمضوا في نزهـــة عرَضية الى العاصمة . هؤلاء كانوا قد شعروا بميل نحوهـــا وذلك بسبب حالة خبرتها في كل شيء .

وقد صرحت بأنها سبق لها وعاشت بضع سنوات في باريس ، وكانت تتكلم الفرنسية بطريقة بارعة ، وأفضل بكثير من أي ايطالي ، إذ كانت تمزجها باسلوب ساخر . وزعمت كذلك بأنها قد سافرت في جولات حول أوروبا بكاملها . وعلى حد قولها ، لم يكن هناك من مكان يُعتبر منهـلاً عاماً إلا وتوقفت عنده .

وقد كانت على شفتيها دائماً ، أسماء أولئك الرجال الشخصيات الذين يعيشون في العالم الكبير ، أسماء أولئـــك الذين تظهر صورهم دائماً في المجلات المصورة ، والذين هم معروفون عند بعض الناس اكثر من المؤلفين والأشخاص المثقفين في بلادهم .

وبما انها قد راحت تستوعب بسرعة اصطلاحات وعادات أحـــد

أشكال المجتمع الإيطالي . فلم تعد تدعو شبان البـلدة الأنيقين بأسمائهم المستعارة ، او بألقابهم ، وإنما راحت تدعوهم بأسلوب أنيق، بأسماء مجردة ككيولو ، وكياني ، وبولو ، وبيارو أو رنزو .

ولم تكن كذلك لتتكلم مرة عن وجوه مجتمع آخر ذائع الصيت ، في مدن أخرى، دون أن تدعو افراده بأسمائهم المسيحية ، او بأسمائهم المدللة. هذا اذا ما كانت لهم هذه الأسماء.

وبهذه الطريقة كانت توحي بأن قد كانت لها معهم علاقات ودية للغاية ، وحتى مسببة للشبهة . واكثر من ذلك ، فقد اعتادت كلما ورد اسم أحـد الأشخاص ، وكان من عائلة شريفة ، تروح تقاطع الشخص المتحدث وتسأله عن بعض الأخبار ، أو تلقي عليه بعض الأخبار حول أسلاف هذا الشخص او أقاربه .

وهكذا كانت قادرة على ان تظهر معرفةً عميقة وأكيدة عن كل ما يتعلق بالتقلبات الماضية والحاضرة ، المختصة بالأشراف الايطاليين .

ومثل الجندي الذي يدرك عن ظهر القلب كل محاولة ترقية او تغيير في صف الجيش ، هكذا كانت تعرف هي بمنتهى الدقة ـ كما لو أنّ المجتمع فرقة جيش ، تقف في احدى المعارك ـ جميع الفضائح ، وحفلات الزواج والولادات ، والوفيات ، وكل سر أو عبارة تتعلق بالثرثرة .

وقد كانت بالفعل ، مرجعاً أساسياً في مثل هـذه القضايا ، ولم تكن

لتقف عند حدود المعرفة التي حصّلتها ، وإنما على العكس ، فقد كانت توسعها باستمرار ، محاولة بطريقة ما ، الابقاء على اخبارها ومعلوماتها طازجة دائماً ، بالاضافة إلى ادخـــال أي تعديل عليها قد تستلزمه من آنٍ لآخر .

لم تكن في سن معينة ، وإنما كانت تتارجح بين الثـلاثين والاربعـين من سنيها ، على أنها كانت قد فقدت كل النضـــارة الفتية ، واكتست في الواقع ، نظرة تعبى ذات خبرة ، نظرة مَنْ تكون صحته قد ضعفت ، بطريقة جدية من جـرّاء السفر الكثير ، والمغامرات العديدة .

كانت متوسطة الطول ، ممتلئة الجسم ، ذات وجه سمين ناعم وبارد المظهر ، كوجه رجل شره ومشحم. بحيث إنّ الشيء الأهم الذي كان يبدو فيه هو التضاد القـــائم بين العينين الزرقاوين الصغيرتين ، القاسيتين ، والشبيهتين بعيني ثعبان ، وبين الابتسامة السكرية المريضة المرغمة فوق شفتيها النحيفتين .

لقد كانت ابتسامة صدق في فمٍ أسود بدون شفتين، يقوم تحت أنفٍ غريب ، مستدير ومعكوف عند طرفه ، أشبه برأس سلحفاة . وبالرغم من ابتسامة الصدق هذه ، ومن التصنعات العظيمة العديدة ، فقد كانت تبدو على وجهها نظرة تجاوز حد النضوج ، غير الصافية ، وذلك بسبب التجعدات الدقيقة والسمينة قليلاً .

وقد كان ينطبق هذا الوصف بالذات على جسمها ، هذا الجسم الذي كان محزوماً ومحدداً على شكل صُرّة ، بحيث لم يكن يمنعها ، بكيفية ما ، من أن تؤرجح ردفيها وهي تسير ، وكأنها دجاجة فضولية مسنّة في باحة احدى المزارع .

وكانت تندّ عنها دائماً ضحكات فاترة ، وزغردات ، ونظرات خاطفة ، وحركات ، وبعض تغنجات انثوية اخرى . واذا ما كان يسألها أحدهم عن عمرها ، كانت تجيب بدون أي تردد ، بأنها فوق الثامنة والعشرين ، ليس غير .

مع هذه المرأة أقامت جيا صداقة جد وثيقة ، وبالتالي سيكون من الاصح القول بأن الفيرا كوسيني قد وضعت يدها بطريقتها الوقحة ، على وضع جيا وعلى حياتها .

وقد راحت المرأتان تتقابلان كثيراً ، وتتقاسمان الميول والمميزات ؛ وقد وجدت الفيرا طريقتين أو ثلاث طرق أكيدة للتحبب الى جيا . وانبرت تعطي جيا بعض الشروح عن العالم الممتاز الذي سبق لها وعاشت فيه دائماً ، خلال جولاتها الاوروبية . وكانت لا تفتأ تحط من قدر البلدة الريفية الصغيرة ، وتسخر منها .

وأخيراً وبطريقة حاذقة ومنحرفة ، كانت هي بارعة فيها تماماً ، راحت تبدي احدى الملاحظات في احد الأيام ، وأعقبتها بملاحظة أخرى

في اليوم التالي، إذ إنها شرعت تظهر لجيما كم هو فظ وسخيف وغير مناسب زوجها .

ولم تكن جيما حقاً في حاجة لمثل هذا الافصاح ، وهي نفسها مقتنعة من حقيقته كلياً . ولكن لا فرق ، فقد ملأها هذا الافصاح من المرأة بلذة كبيرة ، لأنه قد شجع فيها مشاعر ضجرها وازدرائها تشجيعاً باتاً .

كانت الفيرا تبدي هذه الملاحظات بحرص في البدء ، كما لو أنها تغامر بالسير في أرض خطرة ، ثم عندما لقيت ملاحظاتها هذه قبولاً مشجعاً راحت تبديها بطريقة أكثر علانية ، وفي النهاية بدأت تهزأ من فيغنوزي في كل مرة يبرز اسمه في حديث ما .

وقد كانت تملك موهبة كبرى في التقليد ، ولم يكن في وسعها أن تقلد صوت زوج جيما وحسب ، وإنما كانت تستطيع ان تقلد حركاته وتقطيبات وجهه ايضاً .

أما بالنسبة لجيما فقد كانت تشعر بسرور كئيب أمام أمور القدح والهزء هذه ، وكانت تضحك لها برغبة . وأكثر من ذلك ، فلكي تجعل الفيرا من نفسها أداة نافعة ، راحت تشير على جيما الى نوع الثياب والقبعات التي يجب أن تظهر بها، وغالباً ما كانت تقوم هي بصنعها لها .

وبوصفها امرأة فقيرة للغاية ، فلم تكن تكتفي بتناول وجبات الغداء

والعشاء هنا وهناك فقط ، وإنما كانت تعمل جاهدة في تفصيل بعض الثياب وصنع بعض القبعات ، وذلك طبعاً ، دون ان تعلن عن نفسها مطلقاً بأنها خياطة او صانعة قبعات ، ولكنها كانت تقوم بذلك على طريقة سيدة ذات عظمة ، وكهاوية متنازلة لأن تسمح لبضع صديقات بان يشاركنها في أسرار ظرافتها .

على أنّ معرفة الفيرا للغة الفرنسية ، وتجاربها الباريسية القديمة والبعيدة ، قد أسدت اليها نفعاً كبيراً . ودائماً ما كانت تجد احدى السيدات الريفيات الطيبات التي تدفع لها أجرة ، وذلك ببعد النظر عن النصائح غير المغرضة .

أما مجالات الاختصاص الاخرى التي كانت الفيرا تتقنها هي صنع بعض انواع « الكريم » والعطور ، التي كانت تقوم بتركيبها بجرأة بواسطة وصفات من ابتكارها ، بالاضافة الى اغطية للمصابيح الكهربائية كانت تصنعها من حرير ابيض أو ملون ، مزركش ببعض الحواشي أو ببعض حبيبات اللؤلؤ الصغيرة، وذلك بطريقة هي أسوأ ما يمكن ان يكون فيها الذوق الشرقي ؛ وقد كانت تبيعها باسعار جد مرتفعة .

وفي غضون وقت قصير بلغت المودة بين المرأتين حداً جعل جيما ، التي كانت تتقوق، وذلك بدافع الخيلاء ، الى ان تخبر انساناً ما بقصتها ، تعطي المرأة الرومانية تقريراً كاملاً عما كانت تعتبره الآن السر في حياتها: قصة مولدها وزواجها الذي لم يتم .

وفي هذه المناسبة ايضاً، أوجدت الفيرا وسيلة كيما تمتدح جيما المسكينة، فكانت تستمع اليها بهدوء فيه دهشة وذعر، وتقاطعها على الدوام بهتافات حنق، وفضول، وعطف. وفي النهاية أضافت تعقيباتها الشخصية، التي بدت لجيما على الأقل، أنها ملأى بالادراك والمودة .

وقد أوضحت الفيرا بأنّ ذلك كان ظلماً مريراً، كان شيئاً مخجلاً، والأمرّ من ذلك، في هذا الموضوع، كان أمر صاحب « الفيلة » الذي وهو يرى الدمـــار الذي الحقه بحياة جيما أمر الكشف عن أصلها، كان ينبغي عليه أن يقوم بعملية تعويض، بأن يقدّم لها مهراً، ويجد لها زوجاً يليق بها .

وعوضاً عن ذلك فقد تركها تتزوج فيغنوزي . إنّ هـــذا لبرهان أكبر، إن لزم الأمر، عن أنانيته وفقدان شعوره .

واستمرت الفيرا لتؤكد لها بأنه كانت هناك مسالة مماثلة لمسالتها في مجتمع بوخيريست ذي المستوى العالي . والفرق الوحيد الذي كان في تلك القضية هو أنّ الحقيقة قد عرفت بعد فوات الأوان؛ بعد ان كان قد مضى على زواج الأخ من أخته بعض الوقت، وقد اصبح لهما نســل من الأطفال الظرفاء .

وخلصت الفيرا أخيراً الى القول باللغة الفرنسية، وبتفكير عميق، بان الحياة هي هكذا . لا يستطيع المرء مطلقاً، ان يكون اكيداً من أي

شيء . فالحياة أشبه بلعبة « الروليت » تمـــاماً ، حيث إنّ تغيير رقم واحد فيها كافٍ لأن يحطم الانسان او يغنيه .

ولهذا السبب ينبغي أن يمتّع الانسان نفسه عندما يكون قادراً على ذلك ، وبدون أن يوجه تفكيره الى المستقبل .

وفي ذلك اليوم خُيّل لجيا أنـــه لم يسبق قط وكانت لها في حياتها صديقة ما ، أفضل من هذه المرأة الرومانية . وحدث أن كانتا وقتذاك في منزل جيا . وبعد أن تحدثتا كثيراً عن هـــذه القضية الغريبة وغير الاعتيادية ، اندفعتا الى الخارج ، وفيما راحتا تشقان طريقهما عبر الأزقة الصغيرة المتشابكة ، والسلالم المائلة ، وصلتا اخيراً الى شارع كورسو .

كان ذلك في ساعة الغروب ، وقـد كان الشارع العريض الذي يحـد جانبيه صفان من البنايات الضخمة ، يعج بحشد من الناس الذين يتنزهون ويسيرون ببطء .

وهتفت الفـــيرا بازدراء ، مشيرة الى الحشد الادهم الذي كان يسير بانتظـــام .

« حياتهم ريفية . يسيرون في نزهات مشياً على الأقدام ، دون أن يتوقفوا ليشربوا الماء حتى . ثم يعودون الى المنزل لتناول طعام العشاء ، وفي المساء ، إن لم يكن هناك سحب ما ، أو أي طريقة أخرى من هذا القبيل ، للتسلية ، يمضون الى النوم في الساعة التاسعة » .

ووافقتها جيا على ذلك ، فقد كانت تعرف تمام المعرفة أي نوع كانت تشبه هذه الحياة ، والى ماذا كانت تقود .

وفيما كانتا تتحدثان على هذا المنوال ، وتسيران ببطء كبير باتجـــاه الساحة ، إذا بصوت يخرج من بين الحشد وينادي جيا باسمها :

« يا عزيزتي جيا ، إنّ لمن الوهم ان أراكِ ... »

واستدارت فرأت أمامها فيتوني ، ذلك الرجل الشاب ، الذي كان في الحقيقة قد نقلها في الخريف الماضي من « الفيلة » الى البلدة ، والذي كان قد اقترح عليها ، بطريقة شبه جدية وشبه هزلية ، بان تتابع ذهابهـا معه الى روما ، وتمضي لتعيش في منزله .

وقال فيما كان يأخذها من يدها بلا تكلف :

« آه يا عزيزتي جيا ، حقاً أنه لمن دواعي السرور الكبير أن أراكِ .. لمن دواعي السرور الكبير حقاً . . . لقد سمعت بأنكِ قد تزوجتِ ... البروفسير لاغنوزي او باغنوزي ... لكِ تهانيّ ... أحر تهانيّ ... ولكن لِمَ لمْ تأتي الى « الفيلة » وترينا راكنوزيكِ هذا ؟ »

وأجابت جيا على اسئلته هـذه شبه الجدية ، باسلوب الاهتمام الذاتي الغامض فيها ، بانها لن تمضي الى « الفيلة » بعد اليوم ابداً .

على أنّ فيتوني لم يبد اي فضول ، وفجأة سألها عما اذا كانت بمفردها ،

وتود أن تأتي وتشرب معه كأساً ما .

واستدارت جيا وهي قانطة نوعاً ما ، لعـــدم الاهتمام منه نحو سر حياتها ، وقدمته الى الفيرا كوسيني .

وفي الحال سالته المرأة الاخرى عما اذا كان هو لوشيانو فيتوني، الذي يعيش في روما . فردّ عليها بالايجاب وهو فرح .

وهنا شرعت الفيرا، بطريقتها الوقحة المعتادة، تعرض شريط اسماء جميع الاصدقاء الذين كانوا اصدقاءَ لهما معاً .

أما فيتوني النزق والجميل المظهر، وبالتالي الشاب الخشن الذي يعيش حياة اجتماعية ملأى بحب النساء اكثر من حب الطموح ، لم يعطِ انتباهاً كبيراً لألفيرا المرائية الضعيفة ، ولاشتياقاتهـا الوضيعة المتعاظمة ، وفيما كان يجيبها وهو شاردُ الذهن لم يرفع عينيه قط عن جيا .

كانت تبدو له وقد تغيرت كثيراً ، وغدت جميلة تقريباً ، وذلـــك بشكل شهواني بَطِر . وإذ تذكر كم وجدها جذابة في العالم الماضي ، فقد أدرك ان جاذبيتها قد تضاعفت الآن .

ولاحظ كذلك كيف تفادت الخوض في الحديث عن زوجها، وكيف فشلت في ان تتفاعل ودعاباته ، وكيف أنها ، عندما تكلمت عنه، حصرت نفسها ضمن بوتقة من الملاحظات التقليدية البـاردة التي لم تحمل بالطبع شهادةً لحبٍ متسلط عليها .

وفي غضون هذا الوقت كانوا جميعاً قـــد بدأوا يسيرون في شارع كورسو باتجاه الكاتدرائية .

وظلوا يسيرون لمسافة قصيرة في هذه الطريق، يثرثرون ويبتدعون الدعابات . واطلع فيتوني جيما على آخر الأخبار لما كان يجري في «الفيلة» فيذلك العام . وأخبرها كم كان شعورهم كبيراً بفقدانها .

وأجابت جيما بازدراء ، بأن ذلك لم يكن ممكناً ، عندما تكون هناك فتيات كثيرات أحدث وأظرف منها . وهكذا تمّ بينهما تبادل متقارب للمجاملات والتغنجات .

وأما من ناحية الفيرا فقد أمسكت بذراع فيتوني ، الذي كان يمسك بدورهبذراع جيما بعزم.وقد قامت بينفيتوني والفيرا، الصديقينالسابقين مودةٌ جد عظيمة ، بحيث قد يفكر، مطلق انسان ، بأنهما قد كانا صديقين قديمين للغاية .

وفضلاً عن ذلك ، فقد كان كلاهما بفضل خبرته الدنيوية يضحك من جيما ، ويغمز احدهما الآخر ، ويثير حنقها بملاحظات هزلية .

ومن الطبيعي ان يكون فيغنوزي المسكين هو ضحية هذا المزاح ، بحيث راح فيتوني ، بدون ان يقابله او يراه مطلقاً ، يكوّن عنه فكرة محكمة ظريفة ، كما لو أنه نموذج ، بين آلاف النماذج ، لرسم زوج ابدي

لا يتغير .

وكانت الفيرا تتظاهر ببعض عبارات التعنيف والاحتجاج المزيفة ، بأنّ فيتوني هو الذي كان ينتزع منها انتقاداتها الهزلية حول زوج جيما . وكان الشاب يتحول الى جيما وهو ينفجر في الضحك ، ويسألها عما إذا كانت هذه الانتقادات صحيحة .

وفي البدء كانت تتظاهر بأنها مكدرة . لكنها لم تلبث وهي مذعنة للإغراء الذي كانت تثيره فيها أية عبارة ساخرة عن سلوك زوجها ومظهره ، لم تلبث حتى بدأت تتحمل جميع المداعبات الجريئة من صديقتها ومن فيتوني ، ببعض الابتسامات وبهدوء مبتهج تقريباً .

وكان فيتوني الآن يعصر يدها بشدة ، وبطريقة قد أثارتها وبدت لها بأنها ملأى بالمغزى ، إلا أنها لم تجرؤ على الاعتراف لنفسها بما عسى أن يكون ذلك المغزى .

وجميع هذه المداعبات والملاطفات جعلت الوقت يمر بسرعة ، وقد غدا متأخراً الآن . وبما أنّ شارع كورسو قد خلا من الناس تماماً في هذا الوقت ، فقد وقف الثلاثة حائرين في وسط باحة الكاتدرائية . إلا أنهم كانوا مسرورين .

وكان شارع كورسو ينتهي عند تلك النقطة ، ومن هناك كان يمكنك أن ترى طول امتداده المرئي ، الواسع والمهجور ، فيما تقف البنايات

المظلمة شاهقة ومنتصبة في كلا جانبيه . ومن ثمة ايضاً كان يبدأ الزقاق المتعرّج الذي يؤدي الى منزل جيما .

على أنّ فيتوني لم يكن ليسمع شيئاً عن قضية ذهابها إلى المنزل . وزعم أنّ من القساوة أن تتركه وحيداً هكذا ، بعد فترة مودة وانشراح كبيرين .

وفي النهاية اقترح بأنه ينبغي على المرأتين ان تتناولا معه طعام العشاء في الفندق الذي ينزل فيه . ووافقت الفيرا على هذا الاقتراح بحرارة . وقالت بأن هذه الفكرة رائعة ، وفيغنوزي الذي لا يقوم إلا بالتفكير بمسائله في علم الطبيعة ، لن يلاحظ غياب زوجته أبداً .

وكانت جيما تبدي احجاماً وهي تشعر ، بطريقةٍ ما غامضة، بأنها في خطرٍ ، على أنّ الاثنين الأخرين تغلبا عليها في النهاية . فخابرت زوجها هاتفياً لتعلمه بأنها ستتناول طعام العشاء في البلدة .

وهنا مضى الثلاثة الى فندق البركو دين سبينيا ، حيث ينزل فيتوني. وتناولوا طعام العشاء في ركنٍ قصي من غرفة الطعام ، في ذلك الفندق القديم .

أما بلاط الأرضية الاصفر المستهلك ، وضياء المصابيح المتسرب عبر كُمَمٍ (١) معتمة، والقبة بزجاجها الأخضر المربع، كل هذه كانت تجعل من

---

(١) Globes : اغطية للمصابيح الكهربائية بمعنى كمم ومفردها كمة .

الغرفة تبدو وكأنها حوض سباحة فارغ ، حوض سباحة قد وضعت في قعره موائد صغيرة ، وبعض « البوفيات » .

لقد كان الصمت مكرباً وثقيلاً كرائحة نتنة . والجلبة الوحيدة التي كانت تخترق جدار هذا الصمت، كانت تصدر عن أصوات وضحكات فيتوني والمرأتين . اما النزلاء الآخرون ــ اثنان من المسافرين التجار ، وثلاثة من ضباط الحامية ــ بما أنهم كانوا معتادين على تناول وجباتهم وحيدين ، وفي صمت تأملي اضطراري ، راحوا يرمقونهم بنظراتٍ شبه حسودة ، وشبه مخضوضة .

وحتى إنّ الخُدَم المسنين ، ذوي الظهور المحنية ، الذين يرتدون السُترَ البيضاء العتيقة ، بدوا بخدمتهم البطيئة وبملامحهم الفظة ، أنهم يستهجنون مثل هذه الضوضاء غير الاعتيادية .

وفي الحقيقة فيتوني هو الذي كان منفعلاً ، وكثيرَ الضوضاء . أما المرأتان ، من ناحية أخرى ، فقد حاولتا ان تتخذا لنفسيهما وضعاً ملائماً لنساءَ عظيماتٍ صاحبات أناقة شديدة ، قد جئن ، بطريق المصادفة ، إلى محيط ريفي ذي طراز قديم .

أما فيتوني الذي لم يكن ذكياً بالفعل ، وإنما لا تعوزُه قوة الادراك تهكمية ، كان قد اكتشف نقاط الضعف في ضيفتيه ، بشكل مدهش .

وبناء على ذلك راح يحاول ان يضفي على وجبة الطعام جواً متطرفاً

مشتتاً وصاخباً ، كعربيد فرح في حانة ذات مستوى وضيع .

وخُيِّل اليه بأنّ هذا هو الجو الذي كان يحتاج اليه كيما يحرز انتصاراً ليس على الفيرا وحسب ، وإنما على جيما كذلك . على اعتبار أن الاولى كانت تعيش دائماً من أجل هذه الامور ، وعلى اعتبار أنّ الثانية تتوق للقيام بمثل هذه الأشياء .

وطلب نبيذاً فرنسياً لم تكن جيما قد تذوقته قط ، وقد راحت تتفحصه المرأة الرومانية بعين الخبير المرتابة ، واخيراً رضيت عنه بشيء من الثقة .

وبعد ذلك راح هو يروي لهما قصصاً قصيرة وجريئة، بحيث اظهرت الفيرا أنها قد استذوقت نكهتها بكاملها ، كما اظهرت استحسانها بالنسبة للنبيذ . إلا أنّ هذه القصص اربكت جيما وتركتها جاهلة لكنهها .

وكان فيتوني يهتف من آن لآخر محاولاً عن عَمْدٍ ان يحرّف ذلك الاسم المنكود :

« هذا نخب صحة بياغنوزي » .

ثم يضيف :

« هذا نخبُ صحةِ الغائب العظيم » .

وكان يرغم جيما المحجمة والمرتبكة، على مشاركته في شرب النخب . وفي الوقت عينه، وباسلوب كياسي قديم ، خيّل اليه أنه من وحي المكان

الذي يجلسون فيه ، راح يضغط على قدم جيا تحت الطاولة. ولم تكن وهي مستفزة ومتخوفة لتجرؤ على التلبية او الانسحاب .

واكثر من ذلك ، فقد أضيف الى هياجها ، تأثير كمية النبيذ الكبيرة، التي جعلها الشابُ تشربها عن طريق انخابه المتكررة .

والآن بدأت تشعر كما لو أنها تسبح في جو مذهل، لا يمت الى الحقيقة بصلة . جو يبدو فيه انّ ليس ثمة اي نوع من الأعمـــال، مهما يكن جدياً وخطيراً ، يمكن ان يقود الى مطلق نمط من العواقب ؛ وذلك كما في عالم الأحلام . والحياة هناك ناعمة ، وبنعومةٍ كذلك يتخـلى المرء عن عمليـة كبح جماح نفسه .

وكانت تعيش في هذا الجو من الحقيقة الحالمة ، المسلم بهـا بدون اي مقاومة ، عندما سمعت اقتراح الفيرا بأنّ عليهما ان يمضيا ويشربا معهـا زجاجة من الخمر . وأدهشت جيا نفسها بموافقتهـــا على هذا الاقتراح بحماس صاخب .

لقد كان يتنازعها شخصان وقتذاك، وذلك نتيجة الشخصيةالمزدوجة التي سببها السكر . والشخص الاول فيها كان يتصرف كما لو انه بدون عقل اطلاقاً ، بطريقة آلية فارغة ، اما الثاني فقد كان يراقب الاول بجلاء تام ، لكنه كان يبدو انه عاجز كلياً عن الاقدام على اي عمل .

وفي هذه الحالة المزدوجة المجزّأة ، وجدت جيا نفسها تغادر الفندق

ممسكة بذراع الفيرا ، وبذراع فيتوني الذي كان يلفهـــا حول وسطها بحجة مساندتها . وقد بدا لها شارع كورسو مهجوراً تمـاماً ، وهو يرقد بين الصفين المتقلصين للأبنية ذات الواجهات المعتمة ، بحيث ظلت لفترة دون ان تتعرف اليه .

ورأت فوق الرصيف، على مسافة بعيدة، رجلاً أسودَ صغيراً يتوقف ويستدير نصف استدارة ثم يدخِل أحد المفاتيح في القفل ، ويختفي عن الأنظار ، وقد بدا لهـا كأنه « قراقوز » في شارع من الكرتون ، وسط منازلَ من الخشب المطلي .

لقد كانوا الاشخاص الثلاثة الوحيدين في ذلك الشارع العام، الواسع والمعتم . وكلما كانوا يمرون من تحت احد المصابيح ، كانت ظلالهم تكوّن اشكالاً سوداءَ غريبة فوق أرض الشارع المزفتة .

وفيما كانوا يعبرون بحذاء جدرانالكاتدرائية، إذا بدقة جرس الساعة الاولى من برج الكاتدرائية تدوّي فوق رؤوسهم تمـاماً ، مشحونة بثقل وجلالٍ جعلاهم يتوقفون لبرهة .

لقد وقفوا في حَيْرَة ، يستمعون الى التموجات البرونزية لصوت الجرس وهي تنتشر في دوائر من حولهم ، ثم تمتد حتى تبلغَ جدران البلدة المطوقة .

وعند الدقة الثانية ، راحوا يتابعون سيرهم من جديد ، وشرعت

الفيرا التي تقوم بدور المرشد ، تقودهم عبر عدة ازقة رطبة . وتسير بهم صعداً وهبوطاً في سلالم مائلة زلقة خلال أنفاق سوداءَ عديدة ، الى ان توقفت اخيراً أمام باب صغير أخضر ، قائلة :

« ها نحن قد وصلنا ! »

وانتشلت من حقيبتها مفتاحاً حديدياً ذا حجم غير اعتيادي ، ثم فتحت الباب ببعض الصعوبة ، وبعد ان طلبت اليهما ألا يحدثا اية جلبة ، سارت تتقدمهما عبر الظلمة .

لقد كان السلم واقف الانحدار ، وعمودياً تقريباً ، وجد ضيق ، بحيث لم يكن يتسع إلاّ لشخصٍ واحد ليرتقيه . ولم تكن جيا تجدّ في ارتقائه ، فيما كانت تترك فيتوني يدفعها الى فوق ، وقد استفاد هـذا الاخير من وجود الظلمة ، كيما يلمس بشفتيه مؤخرة عنقها ، بطريقة رشيقة .

واخيراً ، وعلى رؤوس اصابعهم ، ولجوا سلسلة من الغرف الصغيرة الوخيمة ، التي لم تجهّز بالاثاث بطريقة كافية ، والتي عرّفتها الفيرا ، باختيال هزلي ، على انها « قصرها » .

وفي احدى هذه الغرف ارتمى فيتوني بجسده فوق كنبة ، وهو يطلق تنهيدة رضى ، وسحب جيا لتجلس بقربه .

وهتفت الفيرا :

« كم انتما جميلان معاً ! تبدوان كما لو انكما قد خلقتما لبعضكما » .

وتوارت عن الانظار وهي تبحث عن « بزال [1] » لتفتح به الزجاجة التي كانوا قد جلبوها من الفندق . وحالما تركت الفيرا الغرفة ، أخذ فيتوني جيما بين ذراعيه وحاول ان يقبلها . إلا انها دفعته بعيداً عنها في الحال وهبت واقفة ، موضحة بلهجة حـــادة مكدّرة ، انها تود الذهاب الى المنزل .

لكن فيتوني، ثم الفيرا التي كانت قد عادت ومعها الزجاجة المفتوحة، راحا يرجوانها ويضحكان عليها لدرجة انها اقلعت عن فكرة المغادرة .

وشرعوا يشربون الخمرة مـن جديد ، ولم تكن جيما وهي تشرب ، بالرغم من سكرها الذي يزداد باستمرار ، لتستطيع ألاّ تقارن بين فيتوني الفتي والقوي ، ذي المظهر الصحي ، وبين زوجهـــا النحيل ذي الوجه الشاحب .

وليس مظهر فيتوني وحده هو الذي راقها ، وإنما اخلاقه كذلك ، هذه الاخـــلاق التي كانت خشنة قليلاً، ولكن دون ان يشوبها اي شيء حقير او ادعائي ، هذا الشيء الذي يُخيل اليها بأنه المشكلة القـــائمة في اخلاق زوجها .

وكان من الواضح بأنّ فيتوني كان دائمـاً يعيش وسط أناس جيدي

---

(١) cork-screw بزال ، وهو آلة تثقب بها سدادة الزجاجة ثم تنتشل بواسطته بسهولة .

التربية ، ورابطي الجأش . وكان ذلك ظـــاهراً كذلك من احتقاره للشكليات باللهجة الواثقة التي يتكلم بها .

وهذه التأملات كانت ممزوجة في عقل جيما المليء بالضباب ، برغبة جديدة كلياً في ألاّ تقاومَ اي اغراء ابداً، وفي ألاّ تحرمَ نفسها الحصول على اي تجربة جديدة . وكانت ممزوجـة كذلك برغبة يائسة في أن ترمي نفسها برعونة في قلب المخاطر التي استطاعت الآن ان تلمح شيئاً منها .

وراحت تخاطب نفسها :

ما هي الفائدة من الصراع في هذا العالم ؟ ما هي الفائدة من ان يكبح الانسان جماح نفسه ؟ ولمن ؟ ولماذا ؟

وكما يحدث غالباً مع الأشخاص السطحيين الذين لا صبر لهم، هكذا كانت هي عاجزة عن تمييز فكرة الفضيلة من فكرة فائدة العقاب السليم السريعة. وإلى هذه الدرجة بالفعل، كان ذلك الاثم المفيد يبدو لها احياناً ، انه فضيلة تقريبـــاً .

لقد كانت هي نفسها شريفة ، ولكن اية فوائـد اكتسبت من ذلك ؟ زواج تعيس بائس ، حياة تضحية ، مع أمـــل صغير او بدون اي أمل للمستقبل. إذن من الافضل ان تتمتع بالحياة دون اي تفكير او وسواس، كما اعتادت الفيرا ان تردد من غير تعب .

وفيما هي تفكر على هـــذا النمط ، كانت مسترسلة بالكلام ، وهي

تقرع كأسها بكأس فيتوني . وما اسرع ما عادت الفيرا لتترك الغرفة من جديد ، وتمضي للبحث عن بعض « البسكويت » . ولكن جيها لم تدفع الشاب بعيداً عنها هذه المرة ، وإنما تركته يضمها الى صدره .

واطالوا مكوثهم اكثر من اللازم قليلاً ، في تلك الغرفة الصغيرة المعتمة والعارية ، وهم يجلسون فوق وسائد او كراسي وطيئة ، حتى بدأت الفيرا اخيراً ، تعلن بطريقة وقائية حنونة ، انها جد ناعسة ، وبأنه قد حان الوقت ليأخذ فيتوني جيها الى المنزل .

لقد بدت مثل هذه الدعوة المشوّقة ، بالنسبة للشاب ، جد عظيمة إن تحققت . أما جيها فقد وجدت نفسها خائفة ، بوخزة صغيرة من الشعور بالغيرة، من ان تأتي الفيرا معها ، ثم تعود الى البلدة بمفردها مع فيتوني .

وبعد تمنيات طويلة ومرتبكة ، بليالي طيبة ، ووعود نشوى لاقامة حفلة اخرى مماثلة في اليوم التالي ، سمحا لربة المنزل ان تدفع بهما الى خارج المسكن ، حيث وجدا نفسيهما من جديد، وحيدين في الشارع .

وسارا عائدين فوق تلك الطريق التي تطوّق البلدة، بمحاذاة الاسوار العالية . لقد كانت تلك الفترة من الزمن ، في شهر تشرين الثاني المبكر، بحيث كانت معروفةً بفضل عذوبة الطقس ، بصيف القديس مارتن . وقد كان القمر الكامل مشرقاً وجلياً في تلك السماء الصافية .

ومن قرب السور المنخفض ، عند حافة الطريق ، كان امتداد

الهضاب الشاسع يبدو مرئياً ، وقد ارتدى حلة من هـذا التألق . وبدت الغابات في الأودية المطلة تتنفس هذا النور كما لو انه كان ضياء الشمس ، وفي هذا النور الصافي بدت الأنوار القليلة ايضاً، في داخل الاكواخ المبعثرة فوق المنحدرات انواراً لا لزوم لها .

لقد كان القمر الكامل يتاجج في قبة السماء العالية، وعن يمينه كوكب جوبيتر [١] الابيض المتالق .

ومن داخل اسوار المدينة ، ارتفع نباحٌ مضطربٌ لكلابٍ عديدة قد اثارها نور القمر المتلألىء هذا ، غير الاعتيادي ، بحيث راحت الأصداء تُرجّع في قلب السكينة، وقد أجاب عليها كلب وحيد من أحد الأكواخ النائية المبعثرة فوق الهضاب، وكان يبدو صوته البعيد آخذاً في الاضمحلال والتلاشي في هذه المسافة الشاسعة .

وهذا النباح الوحيد العاجز ، الصادر عن الكلب المتشوق لايجاد رفقةٍ، اثار في جيما انفعالاً كبيراً ، بحيث شعرت بأنّ ذلك كان بمثابة دعوة لكي تتوقف وتصيخ السمع ، وتتامل جلال الليل .

فجلست فوق السور ، وبقفزة واحدة كان فيتوني يجلس الى جانبها.

---

(١) Jupiter وهو معبود الرومان الاقدمين ، وكانوا يعتبرونه أب الآلهة وسيدها ، ورب السماوات الرامي بالصاعقة . لكن كلمة جوبيتر هنا تعني كوكب جوبيتر ، الذي هو احد الكواكب السيارة ، وقد اطلق عليه العرب اسم المشتري .

وشعرت وهي ماخوذة بهدأة الليل وسحره ، بأنها جد بعيدة عن جميع الرغبات العقلية ، وقد استفاقت فيها رغبة عاطفية لأن تشعر بذراع الفتى تطوق خصرها ، ولأن تجلس ساكنة ومطمئنة ورأسها مسندٌ إلى كتفه ، تسرّح الطرفَ عبر الصقع الذي يغمره الليل .

وتساءلت : ترى ألم يكن هذا من دواعي الحب ؟ أو ليس من الممكن ان يعني الحب مسكَ الأيدي ، ووجودَ الشخصين قريبين من بعضهما ، يتقاسمانِ احساسهما بوجود الأشياء الجميلة ، ويكونان صامتين معاً ؟

وهكذا، وخلف رغباتها الكاذبة والباطلة ، راح ينمو فيها احساسٌ ريفي قديم الطراز ، مليء بالعواطف .

فقالت لفيتوني هامسةً :

« إني احب الاصغاء الى صوت ذلـــك الكلب البعيد . ويا للقمر الساحر ! ... في وسعي ان اجلس واحدق اليه لعدة ساعات ... »

هذه الملاحظة اسبغت ابتسامة على وجه رفيقها الذي لم يفكر بالقمر مطلقاً ، باستثناء انه وسيلة واحدة من الوسائل الكثيرة التي عزم على ان يتوصل من خلالها ، الى تحقيق بعض اغراضه .

ولكن لكونه ذلك الرجل الخبير ، فقد ظلّ صامتاً ، وهو يدرك أنه من الأفضل ان يترك الجدول يسير في مجراه الطبيعي ، وفي الحقيقة كيما يشجع بالقدر الذي يستطيع، هذه الدوافع من ناحية جيما . إذ سيكون

من السهل ان يتوصل من خلال هذه الدوافع إلى دوافع اخرى ، من نوع مختلف تماماً عن هذه .

وبقيا هكذا بعض الوقت ، يجلسان فوق السور ، يحدقان الى الصقع الساكن الذي يغمره الليل . ومن وقتٍ لآخر كانت جيما تدير رأسها نحو الشاب وتنطق بملاحظة ما ، وخدها فوق خده . وكانت هذه الملاحظات عبارة عن كلمات اعجاب بجمال الليـــل ، وانعطافات ودية ، وتأملات وذكريات .

وقد راحت تتمتم وتخبره بانّ منظر القمر الكامل فوق الهضاب المظلمة ، كان يبعث فيها شعوراً هو ذات الشعور الذي كانت تحسّ به وهي في الكنيسة ، في امسيات الشتاء ، عندما تكون الاروقة والأعمدة والدعائم غارقة في الظلمة ، وهي تركع في مكان محجوب خلف أحـــد الأعمدة، ولا تتبين شيئاً سوى المذبح مع اللهيب الواهن لجميع الشموع التي تحترق وتذوب بين الورود القائمة حول صورة العذراء الموشاة بالذهب، والتي تكتنفها الظلمة .

ومضت تشرح بانه كان شعوراً بالعـــذوبة العظيمة ، كان شعوراً بالنسيان ، بالتهتك المأمون وبالاندماج. وبحزم اجابها فيتوني على كل ذلك بانه هو ايضاً كان قد تملكه شعور مماثل ، وفي الوقت عينه راح يحاول ان يقبلها ، وكما كان قد خمّـن ، لم يتلقَ أية مقاومة .

وفي ذلك الوقت كانت جيما قد اقتنعت بأنهـــا قد وجدت الروح اللطيفة التي كانت تبحث عنها . ألم يكن فيتوني يصغي اليها وعلى وجهه سيماء الجدية ، وفي عينيه تفهم ودود ؟ ولكان زوجها إما ضحك وإمـــا نطق بشيء فيه حمق ؛ بشيء من ضمن الأشياء التي تدحض كل الافتتان ، وتجعلك خجلاً لأنك كنت جد ودود . وقررت بأنّ فيتوني كان رائعاً ، وكانت مقتنعة من انها قد احبته .

وفي تلك الليلة ، وفوق ذلك السور ، في ضوء القمر اللامع ، كانت هناك انعطافات ودية كثيرة، نُطِقتْ همساً ، وكانت في كل مرة تصادف اصغاء مدركاً ورؤوفاً . انعطافات ودية كانت متبوعة بالقبلات ، وقد غدت المسألة الآن كألعوبة طفل . ولو ان فيتوني كان يحسن الملاحظة ، لكان دُهش للانتظام الآلي الذي كان يتم به تحقيق بعض الأغراض، بدافع المؤثرات عينها دائماً وبشكل ثابت .

وأخيراً تركا الحاجز ، وفيما كانا يستأنفان سيرهما في ذات الطريق ، بحذاء الجدران، من برج الى برج ومن باب الى آخر ، وصلا الى بيت جيما. وهنا اقترب فيتوني وقبلها القبلة الأخيرة ، ثم قفل عائداً الى فندقه في الطريق عينها بخطوات رشيقة ، وهو يصفر بفرح .

# ٩

وفي اليوم التالي شعرت جيما وهي تفكر بما كان قد حدث ، بانها حائرة اكثر منها متخوفة او نادمة . لم تكن واقفة على أي احساس بتكبيت الضمير ، أو على أي احساس بالخوف كذلك . ومضت تفكر بأن سحر تلك النزهة حتى البيت، كان كافياً لأن يبرر مسألة القيام بالمغامرة.

إلا أنها كانت تشعر بنفسها ، أكثر من أي شيء آخر، بانها في حالة عقلية كتلك التي يكون فيها مَن يشرع بالمشي في ممر مجهول، فيجده سهل الاجتياز ، لكنه لا يكون يعلم ما اذا كان سيصبح خطراً فيما بعد ، وبناء على ذلك ، يبدأ ينظر الى الوراء باحثاً عما يشجعه ويطمئنه .

لقد كانت مرتبكة بشكل قانط ، فكل ما كانت تتوق اليه هو إعانة من سلطة ٍما، كيما تستمر بالسير فوق الطريق التي سلكت .

وليست بنا حاجة للقول بأن هذه الإعانة كانت تقدمها لها الفيرا كوسيني ، التي اسرعت اليها جيما عند الصباح لتأتمنها على أسرارها . وقد

كانت هذه الاعانة من أحر انواع الاعانات .

وفي الحال، وبعد ان أطاحت المرأة الرومانية جانباً وبقوة تلقينية ، بجميع المسائل الاخلاقية على اعتبار انها مسائل في غير محلها ، وليس لها أي أساس ، ركزت قاعدتها ، بدون أي عناء اضافي ، على أساس فكرةٍ ستراتيجية عملية ، وقد كانت ، كما راحت تدعوها ، فكرة العمل اكثر منها فكرة الشك الفاتر العقيم .

وهكذا ، وحيث كانت تأمل جيما ان تصادف ، على الأغلب ، رأياً منزهاً، فقد اكتشفت عوضاً عن ذلك وجهة نظرٍ ملؤها الحماس والتشجيع والمعاونة .

وأما بالنسبة لألفيرا فكانت قد قررت بشكل حازم ، بأن الحقيقة الكبيرة المهمة هي في أنّ فيتوني كان رجلاً بالمعنى الصحيح ، وفيه جميع الصفات الضرورية لمثل هذه القضايا ، وبأنه هو وجيما قد أحبا بعضهما ، ولم تكن المسألة بجد صعبة كيما يكتشف المرء ما اذا كان من المحتمل ان يكون لهذا الحب اية مضاعفات ـ لأنه في مثل هـــذه الحالة لا يمكن ان توجد هناك أية شكوك ـ قد تجعل العلاقة التي بدأت بينهما تنمـو الى درجة ارضائهما معاً ، بدون معرفة زوجها .

وهنا ، وعلى ضوء هذا الموضوع، داهمت الفيرا خبرةٌ فائضة وطويلة المدى . ومسألة اهتمام الفيرا بمثل هـــذه التعقيدات كانت اكثر من مجرد

مسألة سيدة متزوجة واقعـة في مشكلة ، وقد أتت اليهـا تطلب مساعدتها .

وفي كل مرة كانت نصيحتها تسود جيما ، كانت دائماً تدرك أن كل شيء يسير على ما يرام. ورباطة الجاش هذه كان لها على جيما تأثير خدعةٍ من خدع الشعوذة . إذ عوضاً عن ان تظهر لها الفيرا انها مذنبة ، فقد أرتها التعهد الذي لقي منها استحساناً وتصميماً والذي هـو الآن على وشك التنفيذ .

ولكن لو لم تكن جيما في مثل هـذه الحالة من الارتباك والحيرة ، لكانت قد تبينت وهي متسترة وراء خلفية يقظتها ، بأنّ فيها شعوراً بالاشمئزاز وبتأنيب الضمير المزوجين .

على أنّ الفيرا لم تكن تترك لها وقتاً كيما تحلل انفعالاتها، فقد حملتها بعيداً ، الى جو جديد مسكر ، بحيث كانت تبدو فيه حتى اعمال الجرأة التي هي على حدٍ كبير جداً من الخطورة ، اعمالاً ليست قانونية محضاً ، وإنما واضحة كل الوضوح فعلاً .

وفي نظر الفيرا واضحٌ أنه لم يكن ثمـة أي ظِلٍ للشك بأنّ على الزوجات ان يخن ازواجهن ، وبخاصة اذا ما كان الأزواج رجالاً مثل فيغنوزي . وقد كانت تعتبر أنّ ذلك هو قانون الطبيعة ، هو حقيقة ضرورية وعادية ، مثله مثل شروق الشمس او غروبها .

وكانت على وشك ان تهنىء جيا، لأنها لم تكن تحاول ان تجد أي اعتراض نحو قاعدة هي عـــالمية وجد مقبولة . ثم عادت إلى مدح فيتوني ، الذي هو على حد قولها ، كان الرجل المطلوب كيما يسعدها . وخلصت أخيراً إلى الاقتراح بأنه ينبغي ان تتقـــابل جيا وفيتوني هنا ، في منزلها ، وذلك لكي يتجنبا جميع الشكوك .

إلاّ أنّ هذا الاقتراح بقي بدون جواب ، إذ لم تكن لدى جيا الجرأة لقبوله هناك ، وفي ذلك الوقت ، لأنها كانت في تلك الحالة المرتبكة التي تعذبها بالأماني الكاذبة .

وعلى كل حال ، لم تصر الفيرا على القضية ؛ وفي الواقــع فقد كانت جاهزة لأن تغير مجرى الحديث ، وراحت تتفادى العودة الى الموضوع بحزم كبير ، بحيث ظلت جيا لبرهة متخوفة وهي تفكر بأسف مفاجىء بأنها قـــد أزعجت الفيرا ، وجعلتهـــا تجرد نفسها بطريقة محتشمة مزيفة من ان تكون مساعدةً قيّـمة .

وهذا التفكير ظل يزعج جيا طوال النهار ، على أنها عندما عادت في بعد الظهيرة ، وفي نيتها عزم غير معترفٍ به ، كيما تذكر صديقتهـــا باقتراحها ، وتجعلها تدرك بأنها ستقبل به ، لم تجد احداً هناك ، باستثناء فيتوني الذي كان يجلس في احدى الغرف الصغيرة المظلمة ، وأمامه قدحا قهوةٍ فارغان .

وقال موضحاً :

« إنّ الفيرا قد اضطرت الى الخروج لتاخذ كمة مصباح إلى إحدى عميلاتها ، ولن تعود قبل المساء » .

وفي البدء ارادت جيا ان تترك المنزل في الحال ، فقد صرّحت بأن هذه كانت بمثابة مكيدة ، وقد كانت تثبت ذلك تقريباً من الطريقة التهكمية التي راح الشاب يضحك بها بتكتم .

ولكن في النهاية ، بعد توسلات كثيرة قام بها فيتوني ، وبعد أن أقسم بأنه سيتصرف باحترام نحوها ، قبلت هي بان تجلس.

وراح فيتوني يسير في المنزل كما لو أنه كان صاحبه ، وأصرّ على جيا لان تخلع قبعتها ، وحتى إنه قد اكتشف في المطبخ زجاجة مشروب حلو جديدة تماماً ، بحيث تبدو أنها قد ابتيعت منذ برهة قريبة .

ثم جلس بقربها ومضى يقبلها ناسياً قسَمَه . وأخيراً أدركت جيا ماذا كان على وشك انه يحدث . وفجأة لم تعد تفكر بشيء وهي فاقدة قوة الكبح ، إلاّ بأن تكون حرّة بأي شكل . ونظراً لليلة الماضية ، ولجلوسهما فوق السور تحت ضوء القمر ، خيّل اليها أنها لم تستطع ان توحي لفيتوني ببرهان اعظم من هذا عن شعورها : فقد شعرت ان منح جسدها كان شيئاً جِدّ بسيط وجدّ عادي بالمقارنة مع استسلامها الذي ظهر في بعض ملاحظاتها ومواقفها .

ومع سابق ترتيب خسيس فقط ، كان كل شيء تستطيع ان تبوح به لحبيبها يبدو شيئاً مبتذلاً ، واذ تظن نفسها أنها جد حرة ، عندئذ فقط كانت تصبح مزيفة تماماً .

لقد كانت هذه روحاً مأخوذة من السينما ، ومن المجلات الشعبية ، والروايات الرخيصة التي تتكلم عن الحب لفيتوني وليس لها . وهكذا انتقم العقل المزدري لنفسه . فالحرية الحقيقية ، والغليان الذي في الدم ، وباعث الخبرة العميق والأصيل ، جميع هـــذه قد ذابت في كلمات قليلة مبتذلة ، كبعض قطع قليلة من النقود ترنّ معاً في قعر احـدى جيوب متسوّل .

وفي غضون الأيام التي توالت ، كان لدى كلٍ من فيتوني والفيرا سببٌ كيما يشعرا بالكبرياء من فطنتها . فالأول غدا في النهاية يشبع رغبته التي كان دائماً يشعر بها نحو جيما . أما الثانية فقد كانت تحصل على اللذة برؤية نصائحها تُتّبع، وخدماتها المريبة تجد قبولاً.

لكن الشخص الوحيـــد الذي لم يكن راضياً لا مع نفسه ولا مع الآخرين ، كان جيما . إذ لم تكن قط ، عرضة لاحتدام احساساتها بشكل خاص ، واذا كان هناك شيء ، فهو انها كانت ميالة إلى الرقة والحنو اللذين كانا مجهولين كلياً بالنسبة لفيتوني .

والنتيجة كانت بعد اسبوع ، أنّ كلّ برود وسطحية علاقاتها مع

الشاب ، غدت واضحة بالنسبة لها ، بشكل لا يمكن تـلافيه . وفيتوني ايضاً الذي لم يكن جد ظريف من طبيعته فقد راح، حالما تأكد من انتصاره بسرعة ، يشعر بالتعب من تمثيله لدور العشيق المخلص المصغي، هذا الدور الذي كان قد تظاهر به في البداية .

ولم يشعر كذلك بأي حيْـرة في ان يظهر بوضوح تام ، وبطريقته القاسية الجافة ، بأنه كان خائب الظن .

لقد كان يعتقد بأنه كان يطارد امرأةشبقة، وغزيرة، عوضاً عن تلك المرأة الريفية الكئيبة العاطفية ، التي الفى نفسه مشدوداً اليها .

وأبعد من ذلك ، فلأن قد خُيِّـل اليه أن جيما قد تكلمت كثيراً عن الحب ، بلهجة يائسة بعض الشيء ، فيها بعض التوسل ، فقد كان خائفاً من أنها قد تلصق نفسها به وتغدو امرأة غيوراً .

وقد كان في الحقيقة يجد نفسه واقعاً في الناحية العكسية تماماً من المغامرة الوجيزة والعنيفة التي كان يامل بها . ولم تكن مخاوفه كذلك مخاوف بلا سبب معقول. إذ بالرغم من الحقيقة بأن جيما كانت عالمة ببرود علاقاتهما ، فقد كان معقولاً تماماً أنها في النهاية ـ بدافع جزئي من الجبن ، وبدافع جزئي من الوحدة في حياتها ـ ستنمي ميلاً فعلياً نحوه ، وتخدع نفسها بالتفكير بأنها تحبه حباً حقيقياً .

وقد كانت بالفعل تتصارع في خضم بحر وهي جد قانطة ويائسة ، بحيث انها لم تكن أبداً لتجد الشجاعة الكافية لتنهي علاقتهما الفارغة .

وفي الوقت عينه ، لم تعد شخصية الفـــيرا كوسيني بأقل وضوحاً بالنسبة اليها من شخصية فيتوني تلك . وإذا كان ما يزال ممكناً بالنسبة اليها أمر خدع نفسها وتخطئتها بين خشونة وشراسة الشاب وبين بساطته وصفائه ، فمثل هــــذه المشيئة الطيبة كانت عقيمة بالنسبة لقضية المرأة الرومانية .

والآن وقد تلاشى الحماس الأول ، ولم يبقَ بينهما أي شيء ، ما عدا علاقة قائمة على تواطؤ يبعث على الريبة ، فقــــد اكتشفت جيما جميع شوائب المرأة ، بوضوح مبالغ فيه فعلاً ، كما لو انها كانت تراها عبر عدسة مكبّرة ومحرّفة ، وفيما كانت تستغرب كيف أنها لم يسبق لهـــا قط ؛ ولاحظت فيها هذه الشوائب من قبـل ، راحت تختبر ، طوال الوقت الذي تكون فيه بصحبتها ، شعوراً متفاقماً بالخجل لا يطاق .

أما فيتوني فقد كان مخلصاً حسب طريقته ، وحتى انـه كان مخلصاً كثيراً. وقد كانت غلطتها هي أنها قد استسلمت له، على أنّ الفيرا بطريقتها الصادقة ، ووقاحتها ، ورباطة جأشها الفاترة ، كانت الآن تبـــدو لجيما كأنها تجسيد حي وكريه للغش والخداع .

وشعرت بها فاترة ، مزيفة ، مخادعة ، وسليطة متأصلة ، قادرة على ارتكاب أي أذى . وقد كانت متخوفة منها أيضاً ، وهـذا الاشمئزاز من ناحيتها أكده نفور فيتوني المماثل ، الذي يحسه نحو المرأة الرومانية .

إذ لم يكن قد طال بـه الوقت مطلقاً ، حتى وقف على شخصيتهـا . ولكن من أجل مصلحته الشخصية ، لم يطلع جيما على شيء من ذلك . أما الآن فقد بدت له الفيرا ، بكيفية ما ، كشيء من أهم الأشيـاء المضرّة ، العائدة إلى مغـــامرته غير المحظوظة . وراح يبدي تذمره منها لجيما ، بصورة صريحة .

والشيء الذي كان يبعث على التقزز في نفس جيما ، اكثر من أي شيء آخر ، هو الطريقة المتهورة المتحمسة والغيورة بخاصة ، التي كانت تبديها المرأة الرومانية ، كلما تحول الحديث إلى علاقتها مع فيتوني .

وفي الحقيقة لكانت جيما فضلت ألاّ تخوض في الحديث عن علاقتها هذه أبداً ، لكنّ الفيرا كانت تطرح عليها أسئلتها بقلة حياء ، وتسألها عن أخبارٍ ، وتزعجها باستفساراتها.

ثم تبدأ ، بدون أن يُطلب اليها شيء ، تفرغ بعض الاقتراحـات ، والتعليقات ، والنصائح ، والتحذيرات ، وكانت تقوم بذلك دائماً بعاطفة ثرثارة وقائية ومداهِنَة . كانت في الظاهر عاطفة منزهة وحنونة جتى ، ولكنها في الواقع كانت مبهمة وخطرة ، وفي بعض الأحيان تكون جد قريبة من قضية الابتزاز .

وحدث ذات يوم أنّ جيما ثارت ضـــد أحد التصرفات المتهورة ، لكنها كانت ثورة قصيرة لأنّ الفيرا سرعان ما خلعت عنها صورتهـــا

السكرية المعتادة ، وأظهرت فجأة وجهاً كان شاحباً ومتجمداً وبدون شفقة ، وقد كانت رؤيته تبعث على الخوف حقاً .

وقالت بهدوء :

« آه ، هكذا تجيبينني إذن! »

لكن يدها السمينة والتي هي دائماً جد ناعمة وايعازية، راحت تضغط بشدة ، وهي تنطق بهذه الكلمات ، على ذراع جيا وكأنها كفّ حيوانٍ مفترسٍ ، ذات مخالبَ .

« أنا التي كنتُ معينة ونافعة لكِ، في جميع النواحي.. إنك في منتهى الجحود ... ولكن كوني حذرة ، لأني أعرف عنكِ الكثير ... »

هذه الكلمات كانت تتضمن تهديداً واضحاً جداً ، وقد كشفت عن استعداد بارد وعمدي، بحيث شعرت جيا بقواها تخور تقريباً من الخوف فغيرت مجرى الحديث بسرعة ، معلنة أنها كانت آسفة ، ومشيرة إلى أنه هذا كان من جراء عصبيتها ، وهي تحاول أن تسكن من روع الفيرا .

أما الاخرى ، فبكيفية ما ، وكما لو أنّ هذا الاصطدام كان قد أكد لها بعض تخميناتها ، راحت منذ ذلك اليوم فصاعداً ، تتخذ لنفسها نحو جيا هيئة استبدادية فيها طمع متفاقم .

كانت تجبرها على أن تبتاع منها كم المصابيح الكهربائية القبيحة والثمينة، وترغمها على أن تقرضها مالاً. وكانت تمتدحها بمغالاة وبتلميحات

كثيرة حول بعض الثياب والقبعات التي تملكها جيما ، كانت تلك المرأة تضطرها إلى أن تقدمها هدية لها .

ومن فيتوني كذلك ـ وبطريقة مختلفة ـ كانت تحاول ان تبتز بعض المنافع بطريقة هوائية وبتدلعات أنثوية .

على أنه وهو الذي قد قدّم لها في البدء عدداً من الهدايا ، لم يعد ينوي الآن ، وقد خيّبت جيما ظنه ، الاستمرار في تبذير المال . وأجاب بأنه قد أتى دور الفيرا الآن لكي تبدأ في الخوف .

ومنذ تلك اللحظة بدأت الفــــيرا تكرهه بعنف وقساوة وراحت تحاول أن تكون فظة معه بقدر استطاعتها، وتتكلم عنه بالسوء إلى جيما. فقالت إنه كان وغداً ، حامي عاهرات وجاهلاً . ومضت تحاول أن تقنع جيما كيما تنهي علاقتها بـه . وكانت تصرخ مدعيةً أنـه كان يعيش على نفقة النساء ، ومن مكاسب غير شرعية في لعب القمار غير الشريف .

أخيراً ، في أحد الأيام وفي حضور جيما المذعورة والخائفة ، أمسك فيتوني الفيرا من معصميها وهدّدها بأنها إذا ما استمرت في افترائها عليه، فسيصفعها صفعتين من أقوى الصفعات التي عرفتها في حياتها كلها .

وتابع يقول لها بانه يعرف عنها الكفاية ، وبانه ذو نفوذ كافٍ لأن يعيدها بأقصى سرعة إلى بلدها . وأرغمت الفيرا لأن تتنحى عن طريقه، وهي عاجزة وزرقاء اللون من الغضب .

وبين هؤلاء الثلاثة الذين كانوا مشدودين إلى بعضهم جيداً ، كان ينمو هكذا، جو من التحدي والبغضاء وسوء الظن. وذلك بسبب الانقسامات والمنازعات التي توغلت بحتمية مشؤومة ، بين حلفاء من هذا القبيل .

لكن جيا التي هي أقلهما حماية ، وأكثرهما حساسيةً ، كانت الوحيدة التي تألمت كثيراً .

وفي النهاية أعلن فيتوني الذي كان يملك بعض العقارات في الجوار ، والذي كان قد أتى إلى البلدة ليبيعها ، أعلن لجيا بعد اتمام مهمته ، بأنه قد عقد النية على المغادرة .

وتلقت جيا هذا الخبر بهدوء وبدون دهشة . وفي هذه الحال ، لم يكن فيتوني على شيء قليل من الغضب وهو الذي توقع بوحي من خيلائه أن يكون ثمة مشهدٌ مشحون بالحنق والغيرة .

وفي الوقت ذاته شعر بالأسف تقريباً على تركها . كما لو أنه في تلك اللحظة فقط قد أصبح على علم بصفاتها .

وهذا الانفصال بينهما جرى في احدى غرف الفيرا كوسيني الصغيرة. والفيرا هذه التي كانت قد كفّت عن التحدث الى فيتوني منذ أن هددها بالصفع ـ كانت قد التجأت الى غرفة اخرى في اللحظة التي دخل فيها الشاب ، وهي تهتف لجيا بتباهٍ لكي تُعلمها بمغادرة الشاب الحشري حالما يقوم هذا بذلك .

أما فيتوني فقد كان متأثراً ببرود هذا الوداع . ولم يكن ليدرك ما إذا كان من الصواب أو من الخطإ أن يترك جيا . فقد بدت له الآن في هيئة مشوشة شهية ، وشعر بالخشية من أنه لم يفهمها ولم يتمتع بها بشكل كاف .

وفيما كان يفكر بالاّ يقطع خيط علاقتهما الدقيق نهائياً ، بحيث يبقيها محفوظة للحظة التي قد يعاوده فيها شعوره بالرغبة نحوها ، فيعود ويستأنف علاقته معها مرة أخرى، اقترح اخيراً بأنه يمكنهما أن يتراسلا.

كان الاقتراح قد جاء بشكل غريب ، من فم رجل خشن وهمجي مثله ، على أنّ جيا أجابته بجرأة ، بأنها لا تجد أي مسوغٍ لمثل هذه المراسلة . لقد كانا عشيقين ، وهما لا يستطيعان الآن أن يجدا أبداً ، ما يتكلمان عنه معاً . فماذا سيجدان إذن ما يكتبان عنه في رسائلهما التي يقترحها هو ؟

وإذ رآها فيتوني خالية من الانفعالات ، وهادئة هكذا ، أدرك بأنّ مغامرته الريفية قد انتهت بالفعل . وفيما كان يهبط السلّم قال يخاطب نفسه :

« وحسرتاه ! بعد كل شيء ، لقد كانت مغامرةً أفضل من مغامرات كثيرة سواها » .

وهذه كانت المرة الأخيرة التي تتوجه فيها افكاره نحو جيا .

وعندمـــا انصرف فيتوني ، مضت جيا لترى المرأة الرومانية في غرفتها ، في نهاية الممر . لقد كانت الفيرا ، بشعرها الأجعد المشعث والمليء بأوراق التجعيد ، وبنصفها الأعلى السمين الناعم ، المضغوط « بجاكيتة » جلديةضيقة ملائمة، وزلقة مفتوحة، من غيرأن تكون مرتدية أي قميص، وإنما مجرد « تنورة » من الحرير الاصفر ، كانت تجلس فوق السرير ومن حولها تناثرت قطع من القماش الخشن ، وهي منكبة على تزيين احدى كمم المصابيح ببعض حبيبات اللؤلؤ الصغيرة . وبين شفتيها الرقيقتين كجرحٍ ، كانت تحمل حبتين من حبيبات اللؤلؤ الصغيرة هذه .

وقد كانت هيئتها وهي تبدو شاحبةً ، وباردة تحت تلك الثعابين الورقية الصغيرة في شعرها ، وشفتاها مشدودتان الى بعضهما جيداً، كانت هيئة مؤذية ومشوشة كهيئة مدوزا [1] ، بدون أن يشوبها أي رعب أو أي جمال ، مدوزا قد شاخت وغدت عادية وعفِنة .

ورؤية وجه الفـــيرا جعل جيا تقشعرّ . فلم تستطع ألاّ تخاطب نفسهـا :

« لقد مضى فيتوني ، وبقيت أنا مع هذه المرأة » .

وكما لو أنها كانت قد تنبأت بهذه الفكرة ، رفعت الفيرا عينيها في تلك اللحظة والقت على جيا نظرة كريهة .

---

(١) Medusa : امرأة اسطورية احالت منيرفا شعرها الى ثعابين ، وهي كذلك سِعلاة في اساطير الاغريق، والسعلاة معناها انثى الغول ، وهي عنوان الخبث والصخب . اما منيرفا فهي معبودة اليونانيين والرومانيين الاقدمين . وقد نسبوا اليها حماية الفنون والعلوم والصناعة ، وقالوا انها خرجت مسلحة من دماغ جوبيتر ابي الآلهة .

وقالت بصوتٍ حلقي جاء وكأنه صوت ببغاء :

« إذن ، لقد ذهب في النهاية . حامي العاهرات ذلك ، قد ذهب. . . والآن أصبح في وسع المرء ان يتنفس بحرية » .

لم تجبها جيما بشيء .

حقاً أنّ جيما لم تشعر بأي حب نحو فيتوني ، ولكن بالرغم من خشونته ، لم يكن عندها اي حقد نحوه . ومهما يكن من أمر ، فانها ليست مستعدة للخوض في الكلام عنه مع الفيرا .

وهكذا ، وبدون ان تنطق بأي كلمة ، اجتازت الغرفة ومضت الى النافذة لتقف ووجهها يلامس زجاجها. كان الجو قد تبدل الى حالة كريهة وقد بدا الهواء مظلماً ، ومحصوراً في الزقاق في الخارج ، وحجارة المنزل المقابل المسوّدة كانت تتلألأ بالمطر . على أنّ المطر كان حاداً بحيث كانت حبيباته مرئية .

واستمرت الفيرا تقول وهي ما تزال منهمكة بعملها :

« إني لا أحب ذلك الموقف الذي تلتزمينه نحوي منذ وقت الآن. . . وإني أحذركِ يا عزيزتي ، بأني لا أنوي أن أدع نفسي أداس تحت أقدام أي شخص » .

لقد تكلمت بصوت فحّ كفحيح هبة من الريح الشتوية ، عبر ثقب مفتاح في احد الأبواب . وتحولت اليها جيما التي أحست بقشعريرة تسير

في عمودها الفقري ، وسألتها وهي تسند ظهرها الى حافة النافذة السفلى ، وتحدق الى المرأة الرومانية بعزّة نفس هادئة وكئيبة :

« أليس كافياً أن تجعليني ارتكب هذه الحماقة ؟ أن تجعليني أخون زوجي الذي هو افضل رجل في العالم ؟ فماذا تبتغين مني اكثر من هذا ؟ »

لقد كانت لهجتها هذه جديدة ، وهي نفسها كانت دهِشَةً ، والأفكار كذلك كانت جديدة ، إذ لم يسبق لهـــا قط ، وعبّرت عن نفسها حول موضوع زوجها ، بمثل هذه الطريقة .

« توت ، توت ، توت » .

هتفت الفيرا كببغاء ، وهي ترمي جيا بنظرة خاطفة لهول المفاجاة. ثم سالتها بلهجة أخفّ حزماً :

« بِمَ أنتِ تفكرين ؟ ... يجب ان تنامي جيداً ، وستنسين كل شيء يتعلق بالقضية ... »

وكانت قد انتهت من تركيز بعض حبيبات أخرى من اللؤلؤ ، ثم نهضت تاركة عملها من يدهـــا ، وسارت نحو جيا فلفّت ذراعها حول خصرها قائلة :

« تعالي ... اجلسي هنا بالقرب مني واخبريني ما هي المشكلة . لِمَ انت حزينة هكذا ؟ طبعاً ليس من الممكن ان يكون ذلك بسبب ذهاب ذلك الرجل المريع ؟ »

ومن ناحية جيما ، فان ذراع المرأة التي كانت حول وسطها ، وصوتها ونَفَسها، جميع هذه قد بعثت فيها شعوراً بالاشمئزاز العنيف ، من جراء الرعب تقريباً .

فأجابت وهي تقف بصلابة ، وتحدق أمامها مباشرة :

« إني مغتمة ... ليس إلا » .

فهزت الفيرا رأسها وشرعت تقول :

« أنت تحسّين انكِ وحيدة تماماً ، فاسمحي لي ان اقول لكِ بان الوحدة هي التي تجعلك مغتمة ... »

وبعد لحظة اردفت ، كما لو انّ ذلك كان منها مصادفة :

« هل تعرفين ما فكرتُ به الآن ؟ إنها فكرةٌ مدهشة . . . فحتى لا تكوني انتِ وحيدة وضجرة ، بشكل كبير ، سوف آتي وامكثُ في منزلكِ ... وسنبقى مترافقتين ، وسننتف بأصابعنا كل ما يتعلق بقضية فيتوني في العالم » .

وتجمدت جيما من الرعب أمام هذا الاقتراح ، وللحظة ظلت تحدّق مرعوبة الى الارض امامها .

وقالت اخيراً بصوت جد ضئيل :

« لن يوافق زوجي على ذلك » .

فهزت الفيرا كتفيها بجبور وقالت :

« جيما ، ما هذا الهراء ! انتِ متغيرة تماماً . . . إنك تعلمين أنّ

زوجك ينفذ ما تشائين انت بالضبط ... فامضي واخبريه بأنك في حاجة الى رفقة ـ هذه الحاجة التي هي حقيقة تماماً ـ وسوف لن يكون عنده اي اعتراض . . . انت طفلة يا عزيزتي ، لا تدرين ما هي الحياة . . . إذ ينبغي ان يُرغَمَ الأزواجُ على تنفيذ ما يُملى عليهم ... »

هذه الملاحظات المختصرة الفعالة ، التي ابدتها الفيرا، المرأة التي كانت تبدو لجيما في السابق ، مملوءة بالحكمة المقنعة والمبهجة ، اثارت في جيما الآن هياجاً مطلقاً ـ هياجاً كبيراً كوجود هذه المرأة تقريباً ـ وأصرت جيما:

« ولكن لنفرض ، لنفرض انه لا يوافق ؟ »

أجابتها المرأة الاخرى :

« إني أود ان اعرف في الحال ، مـــا معنى هذا ... وإني اكرر ـ زوجك ينفّـذ ما انت تقولين له . . . وإن كان هو لا يوافق ، فمعنى هـذا أنكِ انت لا تريدينه ... »

وقالت جيما مجازفة :

« حسناً ... لنفرض أني انا لا اريده ؟ ... »

فهتفت الفيرا ببرود :

« لا يسعني ان اصدق هذا . فنحن صديقتان طيبتان ! ... لِمَ تودين أن تجعلي مني عدواً ؟ فأنا اعرف عنكِ اشياءَ كثيرة جداً ، بحيث إني إذا ما أرغمت ، سيكون في وسعي ان أسبب لكِ اضراراً كثيرة . . . ولكن ماذا سيكون الهدف من ذلك ؟ ... سيجلب لكِ الألمَ، كما يمكنكِ

أن تتصوري ... وسيجلب الألم لي انا ايضاً ، لأني افضل ، اذا كان هذا ممكناً ، أن أعيش في سلام ، وعلى وفاقٍ مع كل انسان . واني أؤكد لكِ، بأنّ فكرة وقوع بعض الاجراءات التي سيتخذها زوجك ، لمعرفته بما كان يجري في منزلي ، هذه الفكرة بالذات ترعبني » .

وكانت جيما الآن ترتعش كلياً :

« آه ! إذن ستكونين قادرة على ان تفشي ... ؟ »

فاحتجت الفيرا :

« أرجوكِ ، أرجوكِ . هذه اشياء ياتي المرء على ذكرها فقط . . . ولا تدعينا نخوض في الحديث عنها مرة اخرى ، اني أتوسل اليكِ . . . أما الآن » . واستطردت فيما كانت تلف يدها حول وسط جيما وتأخذها من جديد . « اخبريني اي متى سيكون مــــن المستحسن ان آتي الى منزلكِ ... اليوم ؟ غداً ؟ »

أجابت جيما بدون ان تأتي حراكاً :

« غداً ! إذ يجب ان اخبر زوجي » .

فهتفت الاخرى بحماس :

« هذا رائع ! في الوقت الذي يناسبك اكثر . . . غداً . . . وذلــــك سيفسح لي المجال لكي اقوم بتحضير حاجياتي . . . ولكن هل تعرفين أي غرفة أفضّل ان أشغل ؟ . . . الغرفة التي في الطابق الاول ، المطلة على الأسوار ... »

فقالت جيا بتقطيبة عميقة :

« في الحقيقة ، تلك هي الغرفة التي كنت أنوي تخصيصها للأطفال ».

وأمام هذه الكلمات ، حدقت المرأة الاخرى الى جيا بدهشة كاذبة فيها مغالاة ، وقالت :

« جيا ... ألست على وشك أن تخبريني بالفعل ، بأنه سيكون ذوقك فاسداً في ان تتمني انجاب أي طفل ؟ ... والأمرّ من هذا ، أنك ستقولين إنه من السيد فيغنوزي ؟ ... »

إلا أنّ جيا كانت قد علمت منذ أيام بأنهـا حامل ، وقد كانت جد سعيدة، وهي متأكدة نتيجة تقديرها لعدد الأشهر ، بأنّ هذا الجنين هو من زوجها . لكن ملاحظة الفيرا ولهجتها وهيئتها ، قد أثارت في جيا كراهية عنيفة .

وبصعوبة تمالكت نفسها من ألاّ تهجم عليها وتمزّق لها وجهها السكري باظافرها ، وقالت :

« حسناً ! ولكن دعيني الآن أمضي وأتكلم إلى زوجي بالموضوع » .

وفي بعد ظهر ذلك اليوم ، وحالما ولجت جيا المنزل ، اضطجعت فوق السرير ولم تأتِ حراكاً حتى المساء، فيما كانت تلف جسدها «بحرام».

كانت الغرفةُ في الطابق الاول ، وهي تطل على المنحدرات ، وكانت جدرانها بيضاء باردة، وقد اضفى عليها النور المعتم ، في بعد ظهر ذلك اليوم الرطب ، كآبة محزنة .

وفوق زجاج النافذة راح الذباب الاخير المحتضر يئز بشكل كريه ؛

ومن الناحية الخـــارجية كان المطر الغزير ، شبه العنيف ، ينهمر فوق الزجاج في شبه جداول .

وكانت وهي مضطجعة تحدق الى النافذة ، ترتعش بعنف بين الحين والآخر ، فيما تشعر بجسدها كله متجمداً . لم تعد تحس بالخوف او بالغضب وإنما كان ينتابها احساس حاد بالعسف الحقير . كانت تشعر كما لو انها قد وجدت نفسها محكوماً عليها بأن تحيا الى الأبد، مشدودة إلى جسم ميت. وكما لو أنّ هذا الجسم كان يتعفن على رأسها .

ولم يكن ذلك ليعتبر عــــذاباً اخلاقياً وعقلياً ، بقدر ما كان يعتبر شعوراً جسدياً ، إذ إنّ الشعور الذي اثارته فيها الفيرا كوسيني ، كان شعوراً بالاشمئزاز الجسدي .

وقد اظهر لها تصورها المتخوف والساخط بأن حياتها المالوفة كلها قد تغيرت وفسدت بهذا الِحمْـل المشين . وللمرة الاولى في حياتها ، ينتابها شعوربالحماس نحو هذا البيت الذي لم يسبق لها قط وأحبته.

وتصورت الفيرا في الغرفة التي عزمت على ان تخصصها لأطفالهـا ، وكأنهـا حشرة كبيرة ، ناعمة وضاربة الى البيـاض ، تزداد ضخامة وتملأ الغرفة برائحتها القذرة ، وببذور الكراهية الدقيقة التي لا حصر لها .

وكانت تدرك بأنّ الفيرا تتعاطى الخمرة ، وتلوّن شعرها بالصباغ ، وتتناول الأدوية المسهلة . وبشعور هو غاية في الكراهية، خُيّـل اليها انها ترى في تلك الغرفة ، جميع زجاجاتها السوداء الصغيرة والكريهة منتصبة في صف فوق رف ٍما ، واثوابها الرطبة ، المبتـــلة بالعرق ملقاة فوق

الكراسي ، واحذيتها ذات الشكل المشوه بسبب قدميها ، منظمة في صفٍ خلف الباب ، وخيّل اليها كذلك انها ترى الفيرا منتصبة في مدخل غرفة نومها ، ووجهها مشحم بسبب « الكريم » الذي تضعه في الليل ، ورأسها مملوء بأوراق التجعيد ، تقول لها : صباح الخير .

أما الذي أرعبها اكثر من اي شيء آخر في خضم هذه التصورات ، كان فكرة طول المدة التي ستستغرقها هنا . وقد راحت تخاطب نفسها بأنها لن تفلح ابداً بالتملص من مصاصة الدماء هذه . وامام هذا التفكير استطاعت ان تشعر بشيء من الخَبَل السري يزحف في داخلها، وتشعر كذلك بأنها لم تكن ببعيدة عن الجنون .

ولكن الخوف من ان تفقد زوجها الذي بدأت الآن فقط ، تكتشف صفاته ، ومن ان تضطر للعودة الى المنزل في ذلك الزقاق ، والى نزلاء أمها ، قد منعها من ان تخبر فيغنوزي بالحقيقة ، بحيث تحصل ، ليس فقط على صفحٍ فيه شهامة ، وإنما كذلك على انعتاق نهائي وتام .

لم تكن جريئة بطبيعتها ، وقد كانت تشعر وهي متخوفة من الفيرا ويائسة ومستسلمة للمصيبة ، ليس فقط بالجبن وإنمـــا بالعصبية الشديدة كذلك . وأثناء وجبة العشاء في ذلك المساء بالذات ، أعلنت جيا لزوجها بأنها قد قررت ، بما انهـا كانت ضجرة لوحدهـا في المنزل ، ان تستدعي صديقتها لتعيش معها .

وتوقعت من فيغنوزي ان يمانع . إلا أنّ فيغنوزي كان متشوقاً فعلاً لأن يشبع لهـا كلّ رغبة ، وذلك بدافع من الحب من ناحيــة ، ومن ناحية

اخرى بدافع من تبكيت الضمير لأنه لم يمضِ بها للسُكنى في روما كما كان قد وعدها .

فضلاً عن أنه كان يكوّن عن الفيرا ، وهو لم يعرف عنها إلا النزر القليل جداً — إذ كان قد رآها مرات جد قليلة ، وبلمحات مختصرة — وهو الذي لا يعرف ايضاً إلاّ القليل عن شخصية الإنسان، كان يكوّن عنها فكرة تقليدية مرضية كامرأة مهذّبة ، ومفرحة ومسلية ، ويعتقد انها الشخص الوحيد بالفعل ، الذي يسعه ان يكون الصديق المسلي لزوجته .

ولم يكن قادراً بالاّ يلاحظَ منذ وقت قريب ، صَمْتَ زوجتهُ وانقباضها . ولخيبة أمل جيما الكبرى ، أعلن هو عن رضاه لهذه الفكرة في الحال .

وأضاف بلهجة كما لو انها لهجة اعتذار :

« لقد كنت أمعن التفكير بالمسألة عينها . ولست ادري لِمَ لم افاتحك بها حتى الآن ... »

وانتهى اخيراً الى التوضيح بأنهما بدعوتهما لألفيرا كوسيني ، بغض النظر عن أي شيء آخر ، معناه انهما يقومان بعملِ احسان ؛ إذ إنه كان قد عرف من خلال ما أخبرته جيما به ، بأنها كانت امرأة مسكينة ، وتجد صعوبة كبيرة في تحصيل معيشتها .

وفي اليوم التالي وصلت الفيرا بأمتعتها ، كما كان متفقاً . وكل ما كان لديها حقيبة ليفية قبيحة ملأى بالثياب القديمة ، وببعض العلب الكرتونية

المحزومة بالخيوط . والترحيب بها كان ، كما سبق لزوج جيا وأوضح، عملاً من اعمال الاحسان .

وتظاهرت الفيرا بألف مظهر غنجي لكسب فيغنوزي ، الذي راح يحاول ان يتكلم اليهـــا باللغة الفرنسية ، ويسالها اسئلة جد كثيرة عن رومانيا ، وبخاصة عن عدة اساتذة وعلماء في ذلك البلد ، ممن كان هو على اتصال دائم بهم بالمراسلة .

وهذه المجاملات الودية كانت بالنسبة لجيا بمثابة سُمّ ٍ شديد، فلم تنطق بأي كلمة وهم يجلسون إلى المائدة ، وإنما تركتهما يثرثران ويتبادلان النكات فيما بينهما .

وبعد الانتهاء من وجبة الغداء ، وفي غضون الجولة الاستطلاعية عبر الغرف ، اعلنت الفيرا في الحال بأن المنزل ليس في حالة مريحة كما هو من الممكن ان يكون . فهنا ينبغي ان توضع احدى « الكنبات » ، وهناك مقعد، وفي تلك الزاوية إن وُضعت احدى كُمَم ِ المصابيح التي تصنعها هي، فستبدو جميلة للغاية .

ووجدت خطأ كذلك في توظيف خـادمتين . الطباخة ، وخـادمة البيت . وشرعت ، وقد دعتهما الى مقابلتهـــا ، تصدر اليهما الأوامر وتعطيهما النصائح .

وكانت تتصرف بالفعل وكأنها ربـة المنزل ، بينما كانت جيا طوال الوقت تغلي بالغضب . وقد اخبرت فيغنوزي بأنّ كان لها بيتٌ كبير في

بوخيرست مع خدم ، وساسة [1] وعربة بخيل ؛ وأنها كانت واحدة من المضيفات المشهورات والمعروفات جيداً هناك .

لم يصدقها فيغنوزي ، وإنما كان قد تسلى . وفي اليوم التالي ، أطال فيغنوزي مكوثه بعد وجبة الغداء اكثر من العادة ، وعندما همّ بالمغادرة أوعز الى المرأة الرومانية بأن تبقي جيما مسرورة بقدر الامكان. واجابته هي بأنها حيث تكون موجودة ينفي وجود الكآبة . وترك فيغنوزي المنزل وهو ممتلىء بالثقة .

وبعد ان حققت الفيرا غايتها بحصولها على الدعوة للسُكنى في منزل فيغنوزي ، كانت متشوقة للعودة الى العلاقات الودية مع جيما كسابق عهدهما . وقد كانت جد ذكية بحيث ادركت بأنّ اغراضها كانت تتحقق عن طريق الثقة والصداقة ، بشكل افضل منه عن طريق الحالة الصارمة التي كان يوجدها موضوع الابتزاز .

إلا أنّ جيما لم تكن تنظر الى الامور من هذه الناحية . حتى ولو أنها قد شاءت ، فلن يمكنها أبداً أن تتغلب على اشمئزازها الجسدي ، ولن يمكنها أبداً كذلك أن تنظر الى رفيقتها القديمة بأي شعور سوى شعور الكراهية الوطيدة والحادة للغاية .

وهكذا ، فحالما اجتاز زوجها عتبة الباب ، هبت واقفة من أمام المائدة ، وغادرت غرفة الطعام بازدراء وبدون أن تلقي نظرة إلى علبة اللفائف التي كانت تقدمها اليها الفيرا .

---

(١) Grooms : ساسة ، مفردها سائس، الرجل الذي يقوم على الدواب ويروضها .

وفيما بعد ، جاءت الفيرا وقرعت باب غرفتها فلم تلق جواباً. وحاولت أن تفتح الباب بالمزلاج ، إلا أنها وجدته مقفلاً. أما جيما التي كانت تستلقي فوق سريرها فقد سمعت اسمها يردّد بضع مرات بلهجة كانت في البداية رقيقة ومقموعة ثم عالية وغضبى .

وأخيراً سمعت المرأة وهي تمضي في سبيلها . وطوال الوقت بعدظهر ذلك اليوم، ظلت جيما مضطجعة في فراشها ، وهي مقفلة على نفسها حتى تأكدت من أن الفيرا قد خرجت .

عندئذٍ ارتدت ثيابها بسرعة ، وقصدت إلى منزل والدتها . كانت تود أن تأتمن انساناً ما ، أن تجد منفذاً لتعاستها ، أن تطلب النصائح . إلاّ أنها عندما رأت المرأة العجوز وعينيها اللتين ما تزالان فتيتين، ومليئتين بالرعونة الساذجة، ادركت بأن مسألة إئتمانها كانت أشبه بمسألة ائتمان طفل في الثانية عشرة من العمر . وكل ما فعلته كان أن اعلمتها بقضية حبلها .

وأظهرت أمها سروراً سريعاً وودوداً . وراحت تقبلها مراراً وتكراراً . إلا أنها بعد ذلك شرعت تتكلم عن « الفيلة » مغيرة الموضوع. ففكرتها الثابتة كانت في انه ينبغي ، وقد أزال زواج جيما كلّ خطر سوء الفهم ، كما في مسألة بولو ، أن يصار الى دعوتها من جديد، في كل فصل من فصول الصيف ، كما كان يحدث دائماً في الماضي .

ومضت تؤكد بأنّ الناس في « الفيلة » كانوا مدينين لها ، وفيما بعد راحت تتساءل : ولِمَ لا ؟ . فربما كان من الممكن ان تجعل شخصاً ما ، مهماً ، يقع في حبها ، وهكذا تدخل وتلعب دورها في عالم المجتمع الرفيع، حتى ولو كانت قرينة فيغنوزي .

وكانت جيا تستمع اليها بنفاد صبر ، شاعرة بنفسها انها جد بعيدة الآن عن مثل هذه القضايا ـ القضايا التي كانت ذات يوم ، تشعر نحوها باهتمام حماسي للغاية ـ وقد غادرت امها حالما تسنى لها ذلك.

والأيام التي توالت لم تحدث اي تغيير في الوضع ، باستثناء أنّ الفيرا ، عن طريق تفوهها ببعض الكلمات الصغيرة، المليئة بالمعاني المزدوجة في حضور فيغنوزي الذي لم يكن ليفهم شيئاً عما كانت تتكلم ، أوضحت لجيا تماماً بأنه ليس كافياً ان تتركها تدخل الى المنزل وحسب ، إذ يجب ان تُعامل كذلك بكل نوع من انواع اللطف ، كضيفة شرف .

وهكذا كان على جيا ، خلال وجبات الطعام على الأقل، ان تخلق جو محادثة ، وتبتسم للمرأة الرومانية ، اما بقية النهار ، فقد كانت تتفاداها بقدر الامكان . ولكن مهما اغلقت على نفسها ، وحاولت ألاّ تراها ، فانها دائماً تكون حاضرة امامها .

إنّ قضيتها كانت اشبه بجرح متقيّح بارد وندي ولا ألم فيه ، ولكن لا يمكن شفاؤه ، وهو تحت ثيابها ، شيء لا تستطيع ان تنساه ابداً ، وفي الوقت عينه لا تجرؤ على الكشف عنه والتحديق اليه .

وكانت وهي في غرفتها ترهف السمع دائماً للاستماع الى الاصوات الصادرة عن الفيرا في الغرفة الملاصقة لغرفتها . ولم تكن جيا قد ولجت تلك الغرفة منذ ان احتلتها تلك المرأة، وراحت تتخايلها قذرة، والهواء فيها ثقيل ، له رائحة فاسدة، بالاضافة الى لُطَخات الوساخة الكريهة فوق الجدران وعلى الارض .

وكانت تفكر بقشعريرة اشمئزاز: « انها تخلع ثيابها الآن ». ويخيّل اليها انها تراهـا بيضاءَ ترتعش كقطعة من الشحم الملس وهي تهتز في كلاّب الجزار.

وفي اثناء الليل كانت تقول لنفسها : « انهـا نائمة الآن ». وتظل مضطجعة تستمع بمقـتٍ جنوني إلى غطيط الفيرا الذي هو بالتعاقب حاد النغمة وعميقها، والذي بدا لها وكانه خطبة ابتزازية، موجهة ضد مسألة نومها الشخصية. او اكثر من ذلك ـ وهذه الناحية كانت احدى اكثر النواحي فتكاً في قضية استغراقها ـ لم تكن الاصوات والتصورات هي التي تضايقها، وإنما مجرد الشعور بأن الفيرا كوسيني موجودة. ولكن اين كانت آثار هذا الوجود ؟ في المنزل او في وعيها المضطرب ؟

وللمرة الاولى في حياتها اكتشفت جيا بأن ليست الأشياء الملموسة وحدها هي التي يمكن إخفاؤها او طمسها ! وإنما يضاف اليها عالمٌ مثالي كذلك، تتمنى النفسُ ان ترى ذاتها معكوسةً فيه، كما في بقعة من المياه الصافية، ولا يكون ثمة سلام بالنسبة اليها إن لم ترَ هذا العالم صافياً وشفافاً على الدوام.

لم تكن جيا عالمة به، وإنما كراهيتها لألفيرا الآن، تعدت حدودية شكل المرأة نفسها، وغمرت جميع هفوات وتلهفات حياتها الماضية. وفي غضون تلك الأيام الكئيبة من فصل الشتاء، من غير ان تكون على معرفة بهذا ـ وكالشخص الذي يتالم من مناسبة مسمومة، بسبب أزمة عنيفة، ثم ينقى في بضع ساعات من جميع السموم المشربة خلال عدة سنوات ـ كان لانفعال حالتها العقلية الشديد التأثيرُ في ان يعتقها ليس فقط من اعجابها الماضي

بالمرأة الرومانية ، وإنما كذلك من جميع المفاتن الاخرى، التي كانت تعميها منذ سنوات المراهقة .

وعبرالألم المضطرب، شعرت جيما بانها قد شُفيت من كثير من الحمّيات، أما الظلمة التامة التي كانت تضايقها ، فقد كانت المقدمة لصفاء جديد في حياتها. وهذه الحالة بالنسبة لطاقاتها ولنوع الأخطاء التي كانت قدارتكبت ستكون عاجزة ومحدودة . ولكنها ، مهما يكن من أمر، فهي أفضل كثيراً من رعونة امها الساذجة أو من تمرد الفيرا .

وفي النهاية فالمرأةالرومانية نفسها هي التي - بعد كل انتصار على حياء صديقتها ، كانت تظهر نفسها في صورة اكثر سلاطة وابتزازاً - اعطت جيما الفرصة كيما تتحرر منها، وذلك دون ان تكون هي تود ذلك او تنشده.

وبالكاد كان قد مرّ شهرٌ على وجود الثلاثة المزيف والمكرب، عندما اعلن فيغنوزي بطريقته العرضية الفجائية، والاعتادية السمجة في ذات مساء، وهم يجلسون الى العشاء ، بأنه قد حصل اخيراً على منصب استاذ في جامعة روما، هذا المنصب الذي كان هدف طموحه منذ وقت طويل .

وأمام هذه الكلمات لم تقم جيما بأي محاولة لاخفاء فرحها ، ومضت وهي تهب من مقعدها أمام الطاولة، لتذرع قبلة في جبهة زوجها الصلعاء. لم يكن مبعث سرورها هو مطمحها في التغيير وحسب ، وإنما وجدت نفسها أخيراً متحررة من طغيان الفيرا. لقد كانت صفقة عظيمة ومدهشة وغير مؤمل بها ، في مجال الحظ . وخُيل اليها أنها بدأت تعيش من جديد ويدا لها كذلك أنها لا تستاهل مثل هذه الصفقة .

على أن هذا المشهد للانفعال العائلي حدث أمام المرأة الرومانية، التي أوضحت في النهاية وهي متظاهرة بشيء من الكآبة المتحفظة الحصيفة ، أنها بالفعل تحسد جيا كثيراً، لأنها هي نفسها كانت دائماً تحنّ ولكن عبثاً، للذهاب والسكنى في العاصمة .

لقد كانت هذه محاولة اختبارية في رمي الصنارة ، وقد ازدردها فيغنوزي الساذج في الحال، ليوضح بأن ليس لديه اي عزم لفصل صديقتين ودودتين مثلهما، وبناء على ذلك فهو يأمل بأنّ الفيرا ستعود وتستأنف نزولها عندهما خلال الأشهر القليلة القادمة ، مهما كلف ذلك .

وامام هذه العبارات غدت جيا شاحبة بشكل مميت ، وانكمشت في كرسيها . إلاّ أن الفيرا وقد أمسكت بالكرة قبل ان تستقر ، تقبلت الاقتراح في الحال ، وشكرت فيغنوزي . فأجاب هذا بأن عليه ان يكون ممتناً لها للصداقة التي كانت وستستمر تقدمها لزوجته ، وبأنه لا يدري ما اذا كان من حقه ان يقول لها شكراً. أما الفيرا فقد قالت، وهي متظاهرة بالحشمة ، بأن هذا شيء لا يستحق الذكر ، فهي تقوم بما تقوم به لانها محبة لجيا . ومضت في وقاحتها لهذا الحد ، كما لو أنها تتحول الى صديقتها وتسألها بصوت عزيز : « أليس كذلك يا عزيزتي جيا ؟ »

هذه المناظرة في مجال المدح والثناء ، كانت متبوعة باصغاء جيا المألوم والمشتت . وخلف عنف المحادثة بين الاثنين الاخرين استطاعت ان تتصور حياتها في روما في المستقبل غير البعيد ، في منزل ما يزال جيداً ، ولكنه قد دُنّسَ بكامله بحضور هذه المرأة .

وفي ذلك الجو الكئيب ، المشحون بالانفعالات العنيفة ، وأمام هذه

العلامات المشؤومة ، سيولد طفلها . وفجأة ، أحست بانفجار مسبق لغيرة الامومة جعلها تتصور بطريقة سخيفة ، بأن الفيرا كوسيني سوف تنترع منها طفلها الذي سيولد، وذلك لتحقيق غايات أبعد أيضاً في مجال الابتزاز . وبوضوح توهمي ، مهتَلَس ، رأت طفلها بين يدي المرأة ، فيما كان وجهها الخائن الدنس والسمين ينحني فوقه . وقد دفعت هي جانباً ، وارغمت على ان تضم طفلها في السر ، او عندما تسمح لها المرأة الرومانية . لقد كانت رؤيا من النوع الذي افقدها عقلها من الغضب ، وجعل دمها يغلي فجأة ، بالعنف الجنوني . لقد كانت أشبه بشرارة من النار في كومة من القش . لم يكن قد بقي في داخلها سوى الغضب ، سوى الألم والشعور الحيواني غير المكبوح . وتركزت عيناها فيما كانتا تجولان فوق الطاولة بشرود ، على السكين الطويلة والحادة التي كان زوجها يستعملها لقطع الخبز البيتي الذي كان يحبه كثيراً . وببطء مدت يدها إلى السكين وقبضت عليها . وبدت للحظة وهي تقلبها في يدها وتزنها، كأنها تود ان تتفحصها . ثم هبت واقفة بطريقة فجائية آلية وغريبة ، وقد دفعت بكرسيها الى الوراء ، والقت بنفسها على الفيرا والسكين مرفوعة في يدها . وبالكاد استطاعت المرأة الرومانية التي كانت تجلس عند طرف المائدة ، ان تتفادى الضربة. فانتصبت مع صرخة، واقفة من على كرسيها، ثم راحت تتعثر ، واخيراً وجدت ملجأ خلف كرسي فيغنوزي ، وهي تزعق متفوهة بكلمات رعب .

كان فيغنوزي قادراً بسهولة ، بعد مساعدة الخادمة له ، ان ينتزع السكين من يد جيا ، التي كانت الآن شاحبة الوجه للغاية ، وقد وقفت

ساندة ظهرها الى المائدة ، كما لو أنها كانت تشعر بالدوار ، ومن غير أن تجيب على اسئلة زوجها القلقة ، راحت تمر بيدها فوق وجهها وأصابعها مفتوحة . وجزع فيغنوزي من أن تكون على وشك ان يغمى عليها ، فسار بها وهو يأخذها من خصرها ويسعفها باتجاه السلم . ولم تبدِ هي أية مقاومة ، فيما كانت فاقدة الرشد . ولكن كان قد انتاب الفيرا ذعرٌ شديد بحيث لم تعد قادرة على ضبط نفسها . وأكثر من ذلك ، فقد كان يستعر فيها الآن شعور بكراهية ليس بأقل عنفاً من شعور جيا نحوها .

وهكذا ، وفيما كان فيغنوزي يدفع زوجته ، شيئاً فشيئاً باتجاه السلم ، شرعت الفيرا تصرخ بغضب، متفوهة بعبارات مجزأة تتعلق بفيتوني. وفي الحال هيأت جيا نفسها لشحنة ثقيلة مؤلمة ، وأجابتها بصوت هادىء ، وهى تتكلم بصعوبة، فيا تتوقف في منتصف المسافة صعُداً لأول «سفرة» من السلم ، بأنها تستطيع الآن أن تروي القصة كاملة ، وسوف لن تحاول هي أن تمنعها . وردت المرأة الرومانية بصوت مخنوق حاد من الغضب بأنها سوف تقوم بذلك طبعاً . واضافت سلسلة من الاهانات النابية ، التي كانت تتردد بينها دائماً كلمة « مجرمة » ، « مجرمة » ، وتُنطَق بشيء من الكراهية ، وكانت تصرخ بصوت خشن . واستمرت لتعلن بأنها لن تشعر بالراحة حتى تراها مطروحة في السجن. وهذا الحوار بين جيا التي تقف في منتصف السلم ، وبين المرأة الرومانية التي تتلوى في اسفل السلم، استمر بعض الوقت . وبهذه الطريقة حدث لفيغنوزي الذي يقف فوق السلم بالقرب من زوجته ، أن يستمع الى كارثته . ولكن شحوب جيا كان يزداد طوال الوقت . وبدت وكأنها مبلية بالدوار ، فراحت تتشبث

بالدرابزون بكلتا يديها . وأدرك زوجها بأن الوقت لم يكن آنئذٍ ليسمح بالتعبيرات والشروح، وبدون ان يجيب على الفيرا التي كانت الآن قد شرعت في تعبيره ايضاً ، كما لو انها كانت ممسوسة بالشيطان ، بدأ يرغم زوجته ـ بدون استعمال العنف ، وإنما السيطرة اللطيفة ـ لأن تصعدإلى غرفتها وتستلقي في سريرها . وخشي من أنّ وعكة جيما قد تشتد وطأة وذلك بسبب وضعها ، وهذا ما حدث بالفعل. فبعد بضع دقائق سيطرت عليها حمّى مرتفعة. وفي الحال راحت تهذي وعيناها تتمرغان في محجريهما، بكلمات وتلويحات غريبة . فخيل اليها انها رأت وحشاً يزحف ، وهو ناعم وله قوائم كثيرة، ويبسط جسده في الزوايا او تحت الأثاث او يركض بسرعة عبر ارضية الغرفة ، ويقفز الى السرير ليتخذ وضعاً جلوسياً ، فتشير اليه لزوجها برعب . وكانت تردد على الدوام بأن ثمة حركة لرفع الأغطية عنها ، كما لو أن أحدهم كان يحاول ان ينتزعها عنها . وأحياناً أخرى كانت تكتسي هيئات غريبة من الغموض والجلال ، وتردد كلمات لا معنى لها وقد بدا على وجهها تعبير أسف . أما فيغنوزي فقد بعث ، يستدعي أحد الأطباء ، بينما ظلّ طوال هذا الوقت جالساً بالقرب من زوجته . وطال مرض جيما اكثر من اسبوع ، بحيث وقعت خلاله جميع المضاعفات التي كان فيغنوزي قد خشي من وقوعها ، وكان يبقى طوال النهار بالقرب من زوجته ، وفي اثناء الليل ينام في غرفتها .

وفي غضون هذا الوقت ، بينما كانت جيما في حالة هذيان ، او طريحة في الفراش ، كان هو يملك متسعاً من الوقت ليفكر اخيراً وبهدوء بالامور التي كانت قد جرت . وكان قد تغلب شعوره الساخط بالاحتقار على

دهشته الاولى المؤلمة لفترة . ثم بعد ذلك ، وفيما كان مرضها مستمراً ، افسح شعوره الساخط بالاحتقار مكاناً لتفكير اكثر عمقاً وجلاء. ومن خلال عبارات الفيرا الغاضبة ، وإجابات جيما ، كان قادراً على أن يقف بمعرفته على قيد أنملة من الحقيقة الأساسية . لكنه ادرك أنه سيكون من العبث - وبدون الحاجة للقول بأنه سيكون من الأسوإ والمضحك والمضر فعلاً - ان يمضي ويبحث عن الفيرا ، التي كانت قد قامت في الحال بالفرار بعد أن وقعت تلك الحادثة ؛ او أن يستوضح جيما بعد ان تبرأ تماماً .

وظلّ لوقت طويل يمعن التفكير بنوع الاجراء الذي يجب عليه ان يتخذه. ولكنّ حبه لزوجته في النهاية كان اكثر فعالية من الخيبة او الغضب، فقرر أنّ أفضل شيء يفعله هو ألاّ يأتي ، عندما تشفى زوجته على ذكر ما قد حدث . وكان من الأفضل له أن ينظر الى قضية مغامرة فيتوني ، على أنها مجرّد ذلّة في عهد الفتوة . وفيما بعد ، وفي بلدة مختلفة ، وسط حلقة مختلفة من المعارف، سوف ينسى هو وجيما مع الوقت كل ما يتعلق بها ، ولن يفكرا بأنها قد حدثت حتى .

وكانت مرارته الكبرى هي في أنه كان مضطراً لأن يكفّ عن كل تفكير ، في الوقت الحاضر ، بطفله الذي طالما كان قد اشتاق اليه . ثم راح يوجه كل مجهوده نحو شفاء زوجته ، بعد ان طرح جانباً كل تفكير أبعد من ذلك حول هذه المواضيع الكريهة . وبعد حوالي اسبوعين أصبح في وسع جيما ان تترك الفراش . فعقدا النية على المغادرة في الحال .

وفي احد اصباح شهر كانون الثاني ، قاما بالرحيل . كان فجراً عنيفاً ، وبالتالي مليئاً بالضباب . وقد كانت المصابيح الكهربائية ما تزال مضاءة

على طول شارع كورسو المهجور ، والذي يتألق في ظلّ الليل .

وفيما كان « الاوتوبيس » الذي نقلها الى المحطة، يسير هابطاً الطريق على طول الحواجز وهو يطرقع بسرور ويحدث ضوضاء، كان في وسع جيما ان ترى للمرة الاخيرة ، البلدة المظلمة وقد تكوّمت فوق قمّة هضبتها ، مع أنوارٍ حمراء قليلة كانت ما تزال تلمع هنا وهناك، تحت السماء الملتبسة المشحونة بالضباب.

ولم تستطع جيما إلاّ ان تنخرط في التفكير :

« بعد ساعة من الوقت ستستفيق الفيرا كوسيني وستمضي بوجهها الشحيم ، وبشعرها المليء بأوراق التجعيد ، إلى المطبخ كيما تعدّ لنفسها قدحاً من القهوة . وأمي كذلك ستبدأ تسير في انحاء المنزل . وفي دكان بائع الحلوى ، في شارع كورسو ، سيشرعون في رفع ستائر [1] النوافذ الخشبية . وسيبدأ معاً قرع جميع الاجراس الكبيرة والصغيرة مؤذنة ببدء القداديس . غير اني لن أعيش من جديد داخل المنزل في ذلك الزقاق ، ولن أسمع بعد الآن أصوات تلك الأجراس » .

وكانت قد كفّت ، وهي سارحة عبر هذه الافكار ، عن التحديق الى البلدة . وكان « الاوتوبيس » الآن قد دخل الطريق المستقيمة، وهو يسير بين الحقول في اتجاه المحطة التي كانت ابنيتها واسوارها الصفراء المنخفضة قد بدأت الآن تظهر من خلف صفوف الاشجار . وكان يظهر كذلك بعضٌ من دخانٍ ابيض ينبعث من قطارٍ متحرك .

( تمت )

---

(١) Roller-Blind : ستار للنافذة عادة يكون خشبياً ، وينفتح بطريقة التفافه على ذاته في بكرة مثبتة في اعلى النافذة ، كأبواب المحال الخارجية .

## المؤلف والرواية

وُلِد ألبرتو مورافيا [illegible] روما في العام ١٩٠٧ وهو ابن لمهندس بنّاء وقد كان يشكو من انحراف [illegible] صحته ، منذ أن كان في التاسعة وحتى بلغ العشرين من العمر . وقد تعلم [illegible] الإنكليزية والفرنسية والألمانية .

وعندما وضع روايته الأولى ، كان [illegible] مراسلاً أجنبياً في لندن وباريس لبعض الصحف الإيطالية . وفي آخر أيام [illegible] منعت كتبه في ايطاليا مما اضطره الى أن يوقع مقالاته بأسماء مستعارة [illegible] وفي غضون فترة نزول الألمان في ايطاليا ، التجأ الى الجبال ليظل مختبئاً [illegible] ١٩٤٤ ، عندما تم تحرير ايطاليا . وهو اليوم يعيش في روما ، في [illegible] ويعتبر واحداً من أهم الكتاب الايطاليين .

وفي روايته هذه ، وهي حكاية زوجية ، يقدم لنا البرتو مورافيا [illegible] الدقيق والعميق ، صورة فتاة جميلة في سن المراهقة ، ملأى بالآمال [illegible] وتعيش بفضل مخيلتها الخصبة في عالم غريب عن عالمنا الماضي الذي نعرفه وتروح تحلم وتمني النفس بنيل مآربها ، حتى ولو كان هذا عن طريق الخيانة ، وذلك بعد أن ينهار صرح حبها الماضي .

إنها قصة عميقة تدرس نفسية الفتاة المراهقة ، التي ما تزال تعيش في عالم [illegible] وتجسّم صورة فارسها في شكل مثالي ، ثم لا تلبث أن تصطدم بالواقع [illegible] الذي لا مفرّ منه .

في [illegible] الرواية يتجلى أسلوب البرتو مورافيا التحليلي ، بأعمق ما يمكن أن يكون لكاتب [illegible] الجنس ، وعرف كيف يتناول البحث في العلاقات الجنسية بين المراهقين [illegible]

« المترجم »

توزيع دار [illegible] بيروت - تلفون [illegible]